AL-BABA

NAQD KITAB TARIKH AL-'ARAB

Princeton University Library
32101 072545831
2271
.37
.566

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

نقد

كتاب

تاريخ العرب

« مطول »

لمؤلفيه

الدكتور فيليب حتى

الدكتور ادوارد جرجي

الدكتور جبرائيل جبور

بقلم

محمد كامل البابا

طرابلس لبنان

al-Bābā, Muḥammad Kāmil

محمد كامل البابا

Naqd kitāb Tarīkh al-'Arab

نقد كتاب

تاريخ العرب

(مطول)

لمؤلفيه

الدكتور فيليب حتى

الدكتور ادوارد جرجي

الدكتور جبرائيل جبور

طرابلس – لبنان

مطبعة دار الفنون – طرابلس لبنان – شارع محمد كرامه

(RECAP)
2271
.37
(outs).566

الى المخلصين الذين ينشدون الحق لوجه الحق وحده

اقدم كتابي

محمد كامل البابا

نقد كتاب تاريخ العرب المطول

بسم الله الرحمن الرحيم

الف الاساتذة الدكتور فيليب حتى والدكتور ادوارد جرجي والدكتور جبرائيل جبور كتابا في تاريخ العرب اسموه « تاريخ العرب المطول » واليك ماذكروه في مقدمة الكتاب :

لقد وضع كتاب تاريخ العرب في الاصل باللغة الانكليزية ، وطبع اول مرة في مطبعة مكملان *Macmillan* في لندن عام ١٩٣٧ ثم توالت طبعاته حتى بلغت اربعاً آخرها سنة ١٩٤٩ ونقل في خلال هذه السنوات الى اللغات الالمانية والفرنسية والاوردية والتركية ، والمخابرة جارية بشأن نقله الى غيرها من اللغات الاوربية والاسيوية ، الى ان قالوا ولعل القارىء يلذ له ان يعرف ان للكتاب موجزاً ظهر عام ١٩٤٣ من مطبعة جامعة برنستون بعنوان *The Arabs: A Short History* وقد اصدر المجلس الحربي الاميركي منه طبعة خاصة للجيش عدد نسخها خمسون الفاً ، وفي عامنا هذا ١٩٤٩ اخرجت مطبعة برنستون الطبعة الخامسة من الموجز ، وكذلك اصدرت في العام الفائت مطبعة مكملان في لندن طبعة خاصة منه ، ولقد نقل الموجز حتى الآن الى الاسبانية والبرتغالية والهولاندية والعربية ، وقد ظهرت الترجمة العربية عن دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٤٦ بعنوان (العرب تاريخ موجز) ثم قال الاستاذ فيليب . ويسرني الآن ان تكون دار الكشاف التي تولت طبع الموجز العربي لدار العلم للملايين هي نفسها التي تتولى اليوم نشر تاريخ العرب المطول وطبعه في مطابعها الحديثة .

فيليب حتى

8-16-63 1949

ويتبين من هذه المقدمة العناية الفائقة التي بلغها هذا التأليف من الشهرة الواسعة والمنزلة العالية ، خصوصاً وان المجلس الحربي الاميركي اصدر منه خمسين الف نسخة ليقرأها رجال الجيش ويطّلعوا على تاريخ العرب ، ومن مقدمة الكتاب يتبين اللغات الكثيرة التي نقل اليها هذا المؤلف وانتشر في اقطار الارض ، وكان لهؤلاء المؤلفين فيه زلات وسقطات فكيف مرّ على مثل هؤلاء الاساتذة الكبار مثل هذه الاخطاء الكبيرة ، واخص بالذكر منهم الاستاذ حتى فأن له شهرة عالمية واسعة ، وسيمرُّ بك من ذلك مايقضي عليك بالعجب ، بل ربما تكون في وضع لاتصدق معه ان يصدر مثل هذا الزلل عن مثل هؤلاء الاساتذة ، وهذا كتابهم رهن البحث ، وهذا نقدي بما اشرح فيه امامك ينطق عليك بالحق ، ولعمري ان المطلع ليتحسس تلك الاخطاء ويراها كما كانت ترى زرقاء اليمامة القمر ليلة الاربعة عشر من الشهر العربي

ليت الاساتذة عرضوا بنات افكارهم هذه على أحد مؤرخي الاسلام قبل نشره فيقفوا ولو على رأي فرد من اهل هذا الدين الذي كتبوا في تاريخه ولهم عند ذلك قبول النقد او رده . لو تقدم اليوم اكبر مؤرخي الاسلام ليكتب في تاريخ المسيحية وطقوسها فمن المفروض ان لا يأمن العثار ، وفي الحقيقة ان يكون الأمر كذلك من جهة مؤلفيهم ، فتاريخ العرب الذي كتبوا عنه هو تاريخ الاسلام في اكثر نواحيه ، فكيف يطلب الشيء من غير معدنه ويصدر عن غير اصله ؛ لقد كتبوا عن الصلاة والزكاة والصيام والحج فأخطأوا ، ونسبوا الى القرآن العظيم مالبس فيه ، فعثروا في ذلك عثرات شوهت الحقائق التاريخية ـ التي نصبوا انفسهم لبيانها ـ الى ابعد حدّ ، وتكلموا في مباحث لايعرفونها وليست هي من دينهم فخرج من ذلك صورة كأشنع ما يمكن ان يتفق لمؤرخ ، وكان ذلك طبيعياً ، انهم لم يتربوا في احضان الاسلام ليقفوا على تعاليمه ، ومن ابسط المسائل واهونها ان يردّ اقلّ المسلمين علما على هذه الاخطاء ويفندها. لقد افقد مؤرخوا تاريخ العرب بكثرة اخطائهم فيه قيمته ككتاب تاريخ جدير بالاعتبار ، واضافوا لسمينه كثيراً من الغث الباهت ، فجعلوه مما يجب ان يباع ولا يبتاع ؛ وعندي انه لايقوم صدقه بكذبه ولا حقه بباطله ولا يفي حسنه بما شوّه من وجهه .

اجمال مواضع النقد

واود ان اجمل لك مواضع النقد مما ستمرّ فيه بعدُ من بيان وافٍ عمّا اخطأوا فيه ، فقد زعم الاساتذة في ص ١٧١ ان الاسكندر المكدوني اليوناني هو نفس ذى القرنين الملك اليمني المذكور بالقرآن العظيم ، وهذا زعم باطل فيما انقله لك من نصوص تاريخية ، وانكر الاساتذة ص ١٧٧ المعجزات المحمدية خلا معجزة القرآن العظيم ، وقالوا في ص ١٨٨ « وقد نسخ الاسلام في ميدان الاجتماع قانون القبائل المبني على علاقة الدم واستعاض عنه بأخوة دينية » ثم ذكروا في ص٢٢٧ ما يناقض ذلك اذ قالوا « وكان الاعجمي ولو قبل الاسلام ديناً في منزلة دون منزلة المسلم العربي » وقالوا في ص ١٨١ « ولقد نسج الاسلام بترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس الا انه تأثر من بعد بطقوس صلاة الاحد التي يمارسها النصارى في البيع »ونحن مأمورون بمخالفتهم والابتعاد عن تعاليم دينهم واتباع ملتهم بنص القرآن العظيم ، وقالوا بصفحة ٢٣١ « وكان شعار النبي العُقاب» ولم يفرقوا بين الشعار والراية ، والعقاب اسم لبعض رايات النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو لم يتخذ شارة قط .

وعرّض الاساتذة بصفحة ١٧٢ بما ورد في القرآن العظيم « يا اخت هرون » فقالوا « ومريم ام عيسى هي بنت عمران واخت هرون في وقت واحد » ومن المعلوم ان هرون هو ابن عمران ومريم هي ابنة عمران وبينهما اكثر من ١٤٠٠ سنة فكيف تكون اخته . هذا هو اعتراض الاساتذة المؤرخين ، فحمل الاساتذة الاخوة على النسب والقرينة تعين خلافه ، وقوم مريم يعلمون ان بينها قروناً كثيرة وانما ارادوا تشبيهها به من حيث كثرة العبادة ، ولم يريدوا انها اخته في النسب . وذكر الاساتذة بصفحة ١٧٠ « ان السور المكية وهي نحو تسعين راجعة لعهد الجهاد في حياة النبي » وهذا غلط فاحش وخطأ صريح واضح ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يباشر حربا بمكة ، وانما السور المدنيّة هي الراجعة لعهد الجهاد

والحث عليه بعد الهجرة الى المدينة . وقالوا في ص ١٨٢ عن الزكاة انها « قد تغيرت مقادير الزكاة على مر الايام » وهذا زعم باطل . وقالوا في ص ١٨٤ « والعمرة اقل من الحج الحقيقي وهي عبارة عن زيارة لمكة يقوم بها المسلم » وليس هذا بصحيح ، « وذكروا عن ثياب الاحرام انها قطعة واحدة » وهذا زعم باطل يدركه كل من شاهد مسلماً محرماً في اي قطر من اقطار الارض وذكروا بعض احكام الحج بشكل مشوب بأغلاط كثيرة بما لايتفق والواقع ؛ وقالوا عن مكة « انها رديئة الهواء » وليس الامر كذلك . وزعموا في صفحة ٢٢٦ « ان عمر بن الخطاب جعل لنظريته التشريعية اسساً اولها ان لايسمح بالبقاء في الجزيرة العربية لغير الاسلام ديناً ؛ وقالوا ، وعملاً بهذه القاعدة الاساسية اجلى يهود خيبر فيمن اجلاهم بالرغم من عقود الامان السالفة ، فالتجأوا الى اريحا ، وكذلك اجلى نصارى نجران الى الشام والعراق » وانت ترى كيف طعن هؤلاء المؤرخون بوفاء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اجمعت البشر من جميع الاديان على عدله ووفائه بالعهود وسيأتي معك تفصيلات واسعة لدحض هذه المفتريات ، وان الاساتذة قد اخطأوا فيما نسبوا لعمر رضي الله عنه .

تفصيل مواضع النقد

١ — قال الاساتذة المؤرخون الهامش ص ١٧١

وفي نبوءة دانيال اشارة واضحة للاسكندر . واما اصل تلقيب الاسكندر بذي القرنين فغير معلوم ولعله مأخوذ من صورته الظاهرة على بعض النقود المسكوكة ويبدو فيها قرنا كبش كقرني الآله عمون الذي تشبه الاسكندر به » .

لقد جعل الاساتذة بهذا القول الاسكندر المكدوني اليوناني هو نفس ذي القرنين الملك الحميري اليمني المذكور بالقرآن العظيم ، وليس الامر كذلك ، انهما فاتحان عظيمان وكلاهما انتهى بفتوحاته الى الاستيلاء على ممالك واسعة بشمال آسيا ، واثنى الله على ذي القرنين بالقرآن العظيم باعتبار انه مؤمن ومصلح عظيم ، او هو نبي كريم ، والاسكندر المكدوني وثني ، وما سبق ان ورد في القرآن العظيم ثناء على وثني قط ، واذا تلوت القرآن كله تجده مشحونا بذم الاوثان والوثنيين ؛ فقليل من التبصر تعرف الى اي مدى تورط الاساتذة بهذا القول الفاشل ، ان بينهما ازمانا متطاولة ، فالمكدوني مات ٣٢٣ ق م وذو القرنين الحميري كان ايام ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذي كان موجوداً سنة ١٩٢١ ق م .

ما قاله المقريزي في الفرق بينهما

وعقد المقريزي في كتابه الخطط الجزء الأول ص ٢٤٧ باباً خاصاً لبيان الفرق بين الاسكندر وذي القرنين بعنوان « ذكر الفرق بين الاسكندر وذي القرنين وانهما رجلان » قال ماخلاصته :

اعلم ان التحقيق عند علماء الاخبار ، ان ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز هو عربي وان اسمه الصعب بن ذي مرائد بن الحارث ، وانه ملك من ملوك حمير التبابعة كان متوجاً ، وقد غلط من ظن ان الاسكندر بن فيليبس هو ذو القرنين الذي بنى السد ، فان لفظة ذو عربية وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن . كان ايام ابراهيم الخليل عليه السلام والاسكندر المكدوني يوناني . وسئل

ابن عباس عن ذي القرنين ممن كان ، فقال : « من حمير وهو الصعب بن ذي مرائد » وسئل كعب الاحبار عن ذى القرنين فقال « الصحيح عندنا من احبارنا واسلافنا انه من حمير وانه الصعب بن ذي مرائد » والاسكندر المكدوني كان رجلاً من يونان من ولد عيصو بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما السلام .

وذو القرنين لم يرد له ذكر في اسماء ملوك اليونان ولا شعرائهم ولا قوادهم ولا فلاسفتهم فبطل ان يكون من اليونان ، بل ورد اسمه في ملوك اليمن ، والاذواء في اليمن كثيرون يبلغون ٥٥ ملكا ، وفي كتاب مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي ص ٣١٥ ملوك اليمن الذين في صدور القابهم ذو ، هم ذو رياش . ذو سدد . ذو المنار . ذو الاذعار . ذو القرنين . ذو جيشان . ذو رعين . ذو الاعواد . وذو الشناتر . الخ ...

وقد ظهر لك بهذا ان ذا القرنين عربي من ملوك اليمن وليس هو الاسكندر المكدوني .

قال الاساتذة ص ١٧٧

٢ — « وفي علم الالهيات القرآني ليس محمد الا بشراً لم يتم الله على يديه من العجائب (المعجزات) غير اعجاز القرآن ، الا ان التقاليد والاساطير التي اصطنعتها العامة من بعدُ نسجت حول هامة الرسول هالة من النور الالهي ، ودين محمد دين عمليّ صريح »

اقول لم ير احد من العلماء المعتمدة اقوالهم في الاسلام منذ عصر النبوة الى الآن انكار المعجزات المحمدية ، وفي العصور الأخيرة ظهرت في اوروبا فلسفات ونظريات يرون معها ان مادة العالم ازلية ، وانما تكون الاشياء على هذه الكيفية المشاهدة التي يحار فيها الفكر وترتيبها على هذا النظام العجيب القائمة عليه ليس الا من ترتيب عناصرها وتفاعلها بمقتضى النواميس السائرة عليه ، ثم قالوا ان هذه النواميس الكونية ثابتة على طبيعتها لا يمكن ان تتخلف او تتغير او تتبدل ، وتفرعا على ذلك انكروا جميع معجزات الانبياء ، فمثلاً عندهم ان النار ذات طبيعة

الاحراق متى لامست جسما احرقته فاذا كان معدنا صهرته ، والعصا لايمكن ان تنقلب حية ذات روح تسعى ، فهذه النواميس قائمة بذاتها ثابتة بأصلها لايمكن ان تتحول او تخرق ابد الدهر لا لنبي مرسل ولا لولي صالح ، وبذلك نفوا معجزات جميع الانبياء كلها وما اتوا به من معجزات عجيبة في مختلف العصور ، قالوا ذلك ونسوا قدرة الخالق الذي فطر تلك النواميس على طبيعتها واوجدها على خاصيتها التي ارادها لها ، وان له ان يسلبها خواصها متى شاء ويبقيها على طبائعها متى اراد . واضطربت بعض عقائد الشبان المسلمين الذين تعلموا بمدارس اوروبية تبعاً لتقليد التلامذة للأساتذة وطغت بينهم موجة من الالحاد التقليدي زلزلت فيهم العقائد الاسلامية الا من عصم الله .

المعجزة

ولنرجع الى الاصل في اساس هذا الدين الا وهو « عقيدة التوحيد » فهذه العقيدة هي نور الهي اذا قذفه الله في القلب فتح عين البصيرة وصحح نظر الانسان لتفهم اسرار الكون واسرار الحياة ، فالايمان بالتوحيد اذا نزل القلب وخالط بشاشته اوقفه على اسرار الكائنات وفقهه في مراميها ، وليس مبلغ مداه انه كلمات يجري بها اللسان ولا تعيها الاذنان ، لأن حقائق الكون الكبرى وتفهم حكمتها لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه اشتات مفرقة بين ارباب مختلفة وآلهة متغايرة يتسلط عليها هذا بأرادة ويتسلط عليها غيره بأرادة تنقضها ويمضي بها الى وجهة تخالف ارادة الآخر ، ولو كانت كذلك لفسدت السموات والارض ومافيهن وتعطل نظامها ، او على الاقل لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، فلم تكن عقيدة التوحيد افضل من الشرك وكفى ، بل هي علم اصح ونظر اصوب ومقياس لقوانين الطبيعة وانظمة الكون ادق واوفى ؛ ومن هنا صدرت عن جميع العظماء من فلاسفة العالم فكرة الايمان بالتوحيد وان لم تبلغهم دعوة الانبياء .

والايمان بامكان وقوع المعجزة نور وهداية كنور عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من التضييق عليه بتصور حالة واحدة حتى لانستطيع الدخول الا من باب واحد وتفهم لشيء واحد .

وعلماء العصر الحـــاضر قد تخلصوا من قيود القوانين التي سميت زمنا بقوانين الطبيعة ووقر في اذهان الاجيال الحاضرة انها تقيد الظواهر الطبيعية فلا يستطيع العقل ان يفسرها بغيرها ، فالقانون الطبيعي بمعناه الحـــاضر فرض من الفروض مشكوك فيه غير محتوم علينا ردّه او قبوله ، وقد رأينا قانون الجاذبية صالحاً زمناً لتفسير حركات الافلاك وتقييد نظامها؛ ثم أتت النسبية فثبت لبعض العلماء انها اصلح لتفسير حركات الاجرام الفلكية وأوسع نطاقاً من الجاذبية ، ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعي فهو لايحصر كل حقيقة ضمن نطـاقه ولا بدّ ان هنـاك جزءاً مجهولاً وموكولاً الى غير علمنا ومعرفتنا .

والايمان بامكان المعجزة نظر سليم يطمئن اليه المؤمن بعقيدة صحيحة ؛ فاذا سأل سائل ، هل يمكن ان تجري المادة على غير صورتها المعروفة ؟ فالذي يقول بالامكان اصدق نظراً واصح تفكيراً ممن يقول بالاستحالة والامتناع ،وهذا المذهب اصوب في وزن الكون جملة واحدة ممن يفرضون عليه صورة محدودة من اقدم آباده الى غاية آزاله. فالمعجزة ممكنة وليست بمستحيلة ، ان الاله القادر الذي اودع في اصول المادة كل هـذه الصور المختلفة قادر ان يودعه صوراً اخرى ، وعلى الذي يجزم بالاستحالة ان يقيم الدليل ، اما القائل بالامكان فالواقع هو دليله الذي يقيس عليه ، فليس المقياس الحق للمعجزة ان تسأل هل هي ممكنة او غير ممكنة ، كلا بل المقياس الحق ان تسأل عن حكمتها ولزومها ، فأن الذي يدبر الكون وقد خلقه على احسن وجه ممكن يتنزه عن العبث فلا يصنع شيئاً لغير حكمة ، الا ترى حكمته سارية بكل موجود كائن ، ولا تفوت هـــذه الحكمة ادراك النـــاس ماداموا هم المقصودين بأدراكها ، ذلك هو المقياس الصحيح للمعجزات ، واذا كانت قد وقعت فهل هي وقعت الا لحكمة الهداية واتمام وظيفة الرسل من دلالة الخلق على خالقهم ؟

وزعم الاساتذة اصحاب التاريخ و كثير من الاوربيين انه لم يثبت لمحمد صلى الله

عليه وسلم معجزة الا ما كان من معجزة القرآن العظيم ، ولنا ان نسألهم كيف تمت معجزة القرآن الخالدة وامتنع وقوع غيرها من المعجزات ، ام كيف حصل هذا الشذوذ في الطبيعة ، وما دام انه حصل هذه المرة فلا مانع من وقوعه مرة أخرى فان ماجاز على احد المثلين يجوز على الآخر .

« معجزة القرآن العظيم »

والقرآن العظيم هو الكتاب الذي لا يأتيه باطل ، ولا تعلق به الريبة ، انه قد اتى عليه للان مايقرب من اربعة عشر قرنا وسيبقى ابد الدهر كما كان معجزة الحياة الانسانية في طهارة نصوصه مصداقاً لما جاء فيه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) سورة الحجر آية ٩ وسيبقى المعجزة القائمة منذ اوحاه الله لرسوله عليه الصلاة والسلام الى ان يرث الله الارض ومن عليها لا تفنى عجائبه ولا تنقضي علومه ابد الدهر وما دامت الايام .

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

ان اعداء الاسلام لو استطاعوا انكار معجزة القرآن لأنكروها ولكن انى لهم ذلك ، وفي نفس القرآن العظيم طلب لمشركي قريش ان يعارضوه ان ظنوا انه مفترى بسورة واحدة او بآيات من مثله ، وتحداهم وقرعهم صباح مساء وكانوا فرسان البلاغة واسياد الفصاحة فعرفوا عجزهم وقالوا له انت تعرف من اخبار الامم ووقائعها مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا قال ، فهاتوها مفتريات ، وقد ورد بسورة هود آية ١٣ (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فعجزوا ولم يقصد المعارضة خطيب ولا طمع فيها شاعر ولا تكلفها منهم احد ، ولو تكلفها لظهر التكلف ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عنه ويكابر فيه ويزعم انه قد عارض وناقض وجاء بما يقابله اويماثله بل صدر عنهم ضد ذلك ، فقد روي ان الوليد ابن المغيرة وهو من الدّ اعداء النبوة قال له

ابو جهـــل ابن هشام ، وقد طلب اليه ان يقول في القرآن قولاً يبلغ قومه انه منكر وكاره له قال الوليد : وماذا اقول فوالله مافيكم رجل اعلم بالشعر لا برجزه ولا بقصيده مني ، لايشبه الذي يقول شيئاً من هذا ؛ ووالله ان لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعـلاه لمثمر ، وان اسـفله لمغدق ، وانه ليعلو وما يُعلى ، وانه ليحطم ماتحته ، فهذا قول اكبر اعداء النبـوة المحمدية في زمن حياته ، والفضل ماشهـدت به الاعداء ، فيستدل العاقل على عجز القوم مع عظيم بلاغتهم ، واتساع لغتهم ، وسهولة المعارضة عليهم مع كثرة شعرائهم وخطبـائهم وفصحائهم ، الا وان سورة مفتراة واحدة وآيات يسيرة يأتي بها المشركون كانت انقض لقول الرسول وأفسـد لأمره وابلغ في تكذيبه واقامة الحجة عليه واسرع في تفريق اتبـاعه من بذل النفوس والخروج عن الاوطـان وانفاق الاموال وسفك الدماء ، وهـذا من اقل التدبير وايسر البديه على قريش وسائر العرب اجمع. كان لقريش القصائد العجيبة والمعلقات البالغة اعلى درجات الفصاحة والخطب الطويلة ، والقطع الموجزة والرجز البليغ ، وكان لهم السجع والمزدوج واللفظ الجدل في الحكم البالغة كاللؤلؤ المنثور . فلما قطع الرسول ما انتحاوه من اعذار وافتروه من شبه قرعهم بالحجة وبكتهم بالدليل ، حتى صار الذي يمنعهم من الاقرار بالحق الهوى والحمية ، حمية الجاهلية دون الجهل والشك ، فقد عرفوا الحق وانحرفوا عنه ، وفي القرآن العظيم اشارة لذلك في سورة الانفال (واذ قالوا اللهم ان كان هـذا هـو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم) اية ٣٢ وكان العقل والبصيرة يحتمان عليهم ان يقولوا ، اهـدنا اليه ، الا ان عنتهم وتماديهم في المكابرة اخـذ بهم عن جادة الحق ، فساروا في دينهم على غير هـدى ، وسلكوا طريقا في الضلال ارداهم في الهلاك ، فلما رأى الرسول تماديهم في الطغيان وتوغلهم في الباطل ، حملهم على حكم السيف ، وانزلهم على حظهم منه ، فنصب لهم العـداء ونصبوا له ، واخـذهم بالحرب ، وقاوم باطلهم بالنزال ، فقتل من اكابرهم وزعمائهم وذوي المكانة فيهم ما يعرفه الكثيرون ورحم الله محمد الأبوصيري اذ يقول

ولقد تحدى بالبيـــان لقومه ... واليهم يُعزى البيـــان ويُنسب

فتهيبوه وما اتوه بسورة ... من مثله وبيانهم يتهيّب
من لم يؤهله الأله لحالة ... فاتته ، وهو لنيلها متأهب
عجباً لهم شهدوا له بأمانة ... حتى اذا أدى الامانة كذبوا
وارتاب فيه المشركون ولم يزل ... بالصدق عند المشركين يُلقب

على ان اعداء محمد صلى الله عليه وسلم الحاضرون منهم والماضون ، قد انتشروا في اقطار الارض متوفرة لهم جميع انواع القوى ، من علم ومال وعمران ودراسات واسعة ، واكتشافات علمية وافرة ومدنية زاهرة ، قد بلغت شأواً بعيداً وامتدّ لهم الزمان لقرون كثيرة ، وعصور طويلة ، وآلات الراديو المنتشرة في اقطار الارض تتلوا عليهم ايات القرآن الحكيمة ليل نهار صباح مساء وفيه التحدي والتعجيز لعلمائهم وخطبائهم وشعرائهم وفصحائهم ، فماذا فعلوا في هذا السبيل . الحق ان فشل البشرية في هذا التحدي كان ذريعاً وعجزهم بالغاً .

ولا ريب ان ذلك خارج عن نطاق بلاغة الامم ، وفوق مايحيطون به من قوة التفكير وحسن التعبير ، وعلومه اوسع مما يفقهون من دراسات وما لديهم من فنون لاتبلى جدته ولا تنقضي عجائبه ولا تخلقه كثرة الترديد وطول التلاوة تنزيل من حكيم حميد .

الا ترى انه هدى امماً وارشد دولاً واحدث ثورة وانقلاباً في هذا العالم ما كان لها ان ترشد في ثورتها الا على قاعدة القرآن العظيم في قوله تعالى « ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » سورة الرعد آية ١١

وهل يظن احد ممن له مسكة من عقل او نصيب في فهم ، ان اصحاب الرسول وهم كثر قد اسلموا كلهم وتآلفوا هذا التآلف العجيب . ولم تقترن دعواه امامهم بخوارق ومعجزات ثبت بها ايمان الضعيف ووطّد بها ايمان القوى حتى حملهم على الايقان وجمع بين كلمتهم على اخوة الاسلام ، والعرب ابعد الناس في طبائعهم عن التآلف والتعاضد ورفع الاحقاد ولذلك انزل الله عليه في سورة الانفال آية ٦٣ (لو انفقت مافي الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الّف بينهم انه عزيز حميد) .....

لاريب ان هذ التآلف وقع بمعجزة أدبية ما كان لغير محمد صلى الله عليه وسلم ان يأتي بها وان انكر ذلك الجاحدون ، ولنا ان نسأل الاساتذة اصحاب التاريخ الذين اعترفوا بأن القرآن العظيم هو آية محمد الخالدة لم يتم الله على يديه غيرها ، فأيُّ شيء يمنع ان يكون قد تمَّ على يديه خوارق اخر احتاج اليها لتدعيم دعواه الحقة فأقامها لأهل عصره .

ثم بماذا يجيب الاساتذة اذا اتينا لهم من نفس القرآن الذي اعترفوا باعجازه ، بنصوص صريحة على وقوع هذه الخوارق اتى بها الرسول عليه الصلاة والسلام امام جموع غفيرة على مشهد من اصحابه واعدائه ، اما اصحابه فكانت هـــذه المعجزات تزيدهم ايمانا على ايمانهم ، واما اعداؤه فكانوا يسمونها سحراً و كهانة . اجتمع المشركون من اهل مكة الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، منهم الوليد بن المغيرة وابو جهل ابن هشام والعاص بن وائل والاسود بن المطلب والنضر بن الحارث وقالوا للرسول ، ان كنت صادقاً فشق لنا القمر نصفين وقالوا لبعضهم ، ان استطاع ان يسحر الارض فلا يبلغ سحره السماء ، فقد روى عن انس ان اهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر انفلق فلقتين على الجبل فقال الرسول ، اشهدوا رواه مسلم والبخاري ، وقال كفار قريش سحركم محمد ، فانظروا مايأتيكم به السُّفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا ، رأينا القمر فرقتين ، ومع ان اية الانشقاق كانت عظيمة ، فقد كذبت قريش واعتمدت الانكار وقالوا سحر مستمر فأنزل الله تعالى في هذه الحادثة :

(اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل أمر مستقر) وبديهيٌّ انه لو لم تقع هذه الحادثة حقاً لما قال (وان يروا آية يعرضوا) فقد رأوا اية الانشقاق واعرضوا وقالوا في اعراضهم (سحر مستمر وكذبوا واتبعوا اهواءهم) بهذا الانكار الباطل ، والعقل يستبعد الا ان يكون قد وقع هـذا الحادث فاعداء محمد عليه الصلاة والسلام له بالمرصاد ، انهم كانوا ينسبون الى القرآن الكذب ، ففيه انه انشق القمر ، ولهم ان يقولوا حينئذ ليس هناك انشقاق بل كانوا ينشرون تكذيبهم في اقطار الارض ويجعلونها وصمة

يجرحون بها القرآن العظيم .

لقد رأى انشقاق القمر الحاضرون من اهل مكة والغائبون ممن جاء من امكنة بعيدة متحدة الافق مع مكان الحاضرين ، فاخبروا انهم رأوا انشقاق القمر كما وصف الحاضرون . والمسلم لا يعدم وسيلة من ان يخرج ذلك على النواميس الكونية ، فهو ليس الا من قبيل ما يحصل عند الزلازل من انصداع الجبال العظيمة وانقلاب عاليها سافلها ، كما يقول بعض الطبيعيين من ان الارض وكواكب اخر منفصلة عن الشمس وستعود اليها يوماً ما ، وطول الزمان الذي يلزم ان يكون عوضاً عن زيادة القوة في احداث الاعمال ، انما هو شرط في القوة الناقصة قوة المخلوقات ، لا في جانب قدرة الله التامة الخالق للعالم بأجمعه ، (انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) .

الوليد بن المغيرة

ومما جاء بالقرآن العظيم من الاخبار بالمغيبات في سورة « ن » ان الوليد بن المغيرة ، وهو من اهل مكة ، كان ذا مال وبنين ، وعدواً شديد العداوة للمسلمين ، محارباً لله ورسوله ؛ يقول عن النبي « انه مفتون مجنون » واجتمع لهذا الكافر من قبيح الصفات ورداءة السمعة مالم يجتمع لغيره من اعداء محمد عليه الصلاة والسلام ، فأنزل الله فيه من الذم وبيان العيوب مالم ينزل باحد غيره مثله فقال تعالى (فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودّوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاّف مهين همازٍ مشّاء بنميم مناّع للخير معتد اثيم . اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين . سنسمه على الخرطوم) اي نجعل له علامة على الأنف ، فأصابته ضربة سيف في وقعة بدر فحطمت انفه وبقي يعير بها مدة حياته . وكان اعلام القرآن العظيم بتحطيم انفه قبل ان يحطم من الغيب الذي انبأ به القرآن ، والزنيم هو ابن الزنا ادعاه ابوه بعد

عمل نبيد للك ابن كان ذا مال وبنين ١٧

ثمانية عشر عاماً فكان دعياً في قريش .

ولنذكر غيرها من المعجزات المحمدية مما ورد بالقرآن العظيم فما ورد فيه اشد صحة واقوم قيلاً .

لما حدثت وقعة حُنين بعد فتح مكة كان جيش المسلمين نحواً من اثنى عشر الفاً فتقدم هذا الجيش بوقت الغلس يريد محاربة هوازن وثقيف، وكانوا يكمنون بوادي حُنين ، فنضحوهم بالنبال واجلوهم ، فتراجع الجيش الاسلامي وانهزم ، فقال المشركون والمنافقون « بطل سحر محمد » انهم كانوا يسمُّون الخوارق التي يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم « سحراً » فوقف النبي بوجه المنهزمين وهو راكب على بغلته دلدل ينادي « الى اين باانصار الله وانصار رسوله انا عبد الله ورسوله » وقال « دلدل انيخي » فاناخت البغلة حتى اتصل بطنها بالارض ، واخذ كفاً من رمل الوادي وحصبائه ورماه في وجوه القوم وقال « شاهت الوجوه » فما اخطأت حبة منه عيون احد من الاعداء ، فتراجعوا منهزمين بعدما كانوا مهاجمين ، وكان هذا السلاح المحمدي اقوى فتكا من معدات الاعداء وعُدده واعظم اثراً واشد تنكيلاً . وانزل الله على نبيه يبلغه ان رميَ الحصا لم يكن امراً عاديا وانما جرى بقوة الهية ومعجزة خارقة للنواميس الكونية قال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ان الله سميع عليم) الانفال اية ١٦

فهل تعد هذه الظاهرة من الخوارق التي لاريب فيها اذ اتى بها القرآن العظيم ، ولو لم تكن وقعت حقاً لما كانت للأيات القرآنية من معنى قط ، بل لقام اعداء محمد عليه الصلاة والسلام يشنعون عليه بان في القرآن العظيم مالا يتفق مع الواقع .

وكم قبل هذه الظاهرة العجيبة وبعدها من معجزات محمدية ، كانت آية للدلالة على صدق دعواه ، ومنذرة بانه مرسل من عند الله . ولنذكر لك منها شيئاً اخر لينجليَ امامك الموقف باكثر مما مرَّ .

« اخبار القرآن العظيم بتقلب الاحداث السياسية »

ما اشبه الوضع في مكة ايام محمد صلى الله عليه وسلم بالوضع الحاضر في البلاد العربية اليوم ، فكما ان في العرب من يؤيد سياسة بريطانيا وامريكا ، ومنهم من يميل الى الشيوعية ، كان اهل مكة يومئذ حزبين ، مشركين يودون ان تفوز الفرس لأنهم على شاكلتهم لايدينون بدين سماوي ولا كتاب الهي ، ومسلمين يودون ان ينتصر الروم لأنهم امثالهم في الايمان بدين من السماء و كتاب من عند الله .

وكان الفرس والرومان هما الدولتين العظيمتين اللتين تملكان زمام الامور في ذلك الحين ، وتوجهان سياسة العالم القديم ، وقد هاجم الفرس بلاد سورية وجميع سواحلها تحت امرة قائد من قوادهم اسمه شهربراز سنة ٦١٤ م فانتصر على الروم في اذرعات وبصرى ادنى الشام الى ارض العرب فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وهذه الحادثة مدرجة بتاريخ هذه البلاد .

ورد الخبر لمكة بانتصار الفرس فسر المشركون واستبشروا وتحدثوا فيما بينهم ، ان كسرى سيرسل جيشاً يقتل محمداً واصحابه ، وحزن المسلمون لهذه الحادثة : وبلّغ محمد صلى الله عليه وسلم اصحابه ما انزل الله عليه بشأن هذه الحادثة :

(الم. غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لايعلمون) الآيات اول سورة الروم ولا يشك احد من العرب قط ان سيغلبون هي اخبار عن الآتي، وشاع امر الآية المنزلة بعود الحرب في بضع سنين ، وان النصر سيكون بجانب الروم ، وانكر خصوم الاسلام عودة الحرب وانتصار الروم ، فتشاجر ابو بكر مع ابيّ بن خلف من كفار قريش في هذا وراهنه على عودة الحرب وانتصار الروم كما ذكر القران العظيم . كان الرهان لمدة ثلاث سنوات على عشرة من النوق ، رجع ابو بكر للرسول يخبره بأمر الرهان فأشار عليه بالزيادة في الرهان والزيادة في المدة ، لأن كلمة بضع معناها من الثلاث الى التسع ، وهكذا اتصل ابو بكر مع

غريمه ابيّ ، واوصل الرهان لمئة ناقة والمدة الى تسع سنوات لأن الرهان رابح لجهة ابي بكر يقيناً ، انه وعد الله لايخلف الله وعده .

ذهب الامبراطور هرقل الى القسطنطينية بعد ضياع البلاد السورية من يده وقام باستعدادات عظيمة ، ولما خرج من بوغاز الدردنيل بأسطول مشحون بالرجال والعدد ، اتى خليج الاسكندرونة واخذ يرتب وسائل الحرب ، وتمكن بعد ست معارك متوالية من انقاذ الولايات السورية ورد الفرس الى ما وراء الفرات واجبر كسرى على طلب الصلح واسترد منه صليب الصلبوت ، وكان ذلك بعد مضي سبعة اعوام من استيلاء الفرس على البلاد .

قتل ابيّ بن خلف ببحر هذه المدة في وقعة أحد ، فأخذ ابو بكر الرهان من كفيله وجاء به الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال « تصدق به » .

وابيٌّ بن خلف هذا كان يلقى رسول الله بمكة فيقول له يامحمد « ان عندي العود — يعني فرسه — اعلفه كل يوم فرقاً من ذرة اقتلك عليه » — الفرق مكيال وزنه ٢٣٠٤ دراهم — فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام « انا اقتلك ان شاء الله » فلما كانت وقعة أحد ادرك ابيٌّ رسول الله وهو ينادي « أين محمد لانجوت ان نجا » وكان بعض اصحاب الرسول يحيطون به فقال القوم يارسول الله « أيعطف عليه رجل منا فيقتله » فقال دعوه فلما دنا تناول الرسول حربة ثم استقبله بها فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً فلما رجع الى قومه وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم فقال قتلني والله محمد انه كان قد قال لي بمكة انا اقتلك فوالله لو بصق عليّ لقتلني ، فمات ابيٌّ ولم يباشر الرسول مدة حياته قتلاً غير هذا .

عن تاريخ الخميس ص ٩٤

« اخبار القرآن العظيم بانكسار قريش حين وقعة بدر »
« وقبل نشوب الحرب »

لما جاءت قريش تختال بعُددها وعديدها تحاول ان تكذب الله ورسوله ، قام ابو جهل عمرو بن هشام ووقف بين الصفين وجعل ينادي « نحن جمع منتصر على محمد » وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل صفوف اصحابه ، فلما رأى كثرة قريش وقلة رجاله وضعف عدتهم الى جانب عدة المشركين ، عاد الى العريش الذي كان قد اعده له اصحابه وهو اشد ما يكون اشفاقاً مما يصير اليه امر الاسلام اذا لم يتم النصر للمسلمين ، واستقبل رسول الله القبلة واتجه بكل نفسه الى ربه وجعل يقول : « اللهم هذه قريش قد اتت بخيلائها تحاول ان تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد » وكان المسلمون لم يتوقعوا هذا الموقف ولم يتخذوا له عدته ، فعدد اعدائهم ثلاثة اضعافهم ، وخفق رسول الله خفقة من نعاس رأى خلالها نصر الله وجاءته البشرى ونزل عليه الوحي (ام يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامرُّ) سورة القمر ٤٦ و٤٧ و٤٨ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس يحرضهم ويقول لهم « والذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر الا ادخله الله الجنة » فهزمت قريش ونصر الله رسوله وانجز وعده ، على ان وسائل النصر يومئذ كانت متوفرة في جانب الاعداء ، لكن الله خيب رجاءهم وحقق وعده لنبيه وكان وعد الله مفعولاً ، وتمت معجزة النبوة .

(معجزات الانبياء كالاحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات)

اذا لم يكن للانبياء معجزات وخوارق يصدمون بها الطغيان ويحاربون الكفر ، فكيف يقيمون الحجة على خصومهم لتسهيل امر ايمانهم ، وقد اتصل بنا تاريخياً حوادث من هذا النوع لاوجه عند العقلاء لردها ، بل يستحيل ردها فالمعجزات كالامتيازات يكرم الله بها رسله كاتصال بني اسرائيل بصحراء التيه حينما اتبعهم

فرعـون وجنوده لما خرجوا من ارض مصر ، فهل كان انفلاق البحر يومئذ حقاً ياترى ، واذا لم يكن حقاً فكيف اتصلت بنو اسرائيل بالساحل الثاني للصحراء ، ثم هل انقلبت عصا موسى حية تسعى كما كررها القرآن العظيم وذكرته التوراة ، وهل من سبيل لنقض هذه الحقائق التاريخية المنقولة الينا نقلاً لايحتمل النقض ، وفي القرآن العظيم والاناجيل الاربعة ان المسيح عليه السلام احيا الموتى ، فكيف تمت هـذه الخوارق ياترى ، ان معجزات الانبياء عليهم صلوات الله تشبه الاحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات ، او مايكون بأرادة من الملوك لمصلحة خاصة — ولله المثل الاعلى — وهـذه معجزة القرآن البيّنة اعظم شاهد على صحة ذلك ، والحق انه لامستند لأحد من العقلاء في انكار كل ما يخالف السنن العامة ، فليس هناك قاعدة مطردة ولاسيما فعل الخالق عز وجل وارادته لها وهو خالق كل شيء بقدرته وواضع نظام السنن والاسباب بمشيئته ، واكثر منكري الخوارق يؤمنون بالله ربهم ، وانما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه ويحسبون ان خرق النواميس الكونيـة مناف لحكمته ، ومن ذا الذي يحيط بحكمته او بسـننه علماً . والذي يقضي به العقل ان لانصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الكونية الثابتة المطردة في نظـام الاسباب العـامة الا اذا ثبت وقـوعها ثبوتا قطعياً لايحتمل التأويل فلا مفر لنـا حينئذ من الاعتراف بشيء واقع ثابت اتصل بنا من طريق التواتر وهذه معجزة القرآن العظيم امامنا ، او كما وقع انفلاق البحر لموسى عليه السلام وانقلبت له العصا حية تسعى والا كنا من منكري البديهيات هذا هو المعتمد عند المحققين من علماء المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم .

والنوع الانسـاني وان كان قد مشى خطوة بعيدة المدى في طريق المدنيّـة والاكتشافات العلميـة فهو بالنسبة لما يجهـله من المخبئات المكنونة في عالم الغيب لا يُعد الا شيئاً تافهاً جداً لاقيمة له . فماذا فعلت البشرية الى هذا اليوم مع ترقي العلوم وانتشار المعارف في بحث الحياة والروح والعقل وقوى النفس من الحافظة والذاكرة ، وكيف تحفظ صور الاشياء عند الانسان وتذكر بعد ان تنسى وتزول عن صفحات الفكر ، وغاية المدعين لكشفها ان يأتوا بكلام غامض مجمل لايشفي

الغليل ولا يرضي العقل ولا يقنع الخصم ، ثم ان النظريات العلمية في بطون القرون كانت تقوم تارة وتبطل اخرى ، فكثير منها لايثبت مع الزمن ويكشف خطأه مرور الزمان ، بل مائبت دهراً طويلاً وبقى احقاباً كثيرة قضية مسلمة عند العلماء يعد بعصرنا الحاضر من المضحكات حتى عند اصغر تلامذة المدارس ، واي تلميذ يرتضي اليوم ان تقول له ان السماء متصلة بالارض من جميع اطرافها كالقبة قائمة على ما تحتها ، فقد بقيت مثل هـذه الاقوال آماداً طويـلة تراها البشرية حقيقة لاجدال فيها ، انهم رسموها على الخرائط هكذا فما شأنها اليوم وقد انهارت حتى لا يُعدُّ من يراها في جملة العقلاء .

وكثيراً ما نقرأ عن امور شهدها العلماء واثبتوا حقائقها بالمشاهدات ثم قالوا عنها ، انهم لا يجدون لها في السنن الكونية التي استنبطها العلم تأويلاً تطمئن اليه قواعده ، فعلم النفس بوجه عام غير ثابت السنن في كثير من الشؤون التي تعرض له ، فاذا كان هـذا امراً واقعاً في الحيـاة العادية فأن طمعنا في تفسير ظاهرات الكون كلها على هذه الطريقة محاولة عقيمة واسراف معيب .

وما يدريك ان يأتي يوم يكون قريباً او بعيداً تبطل فيه النظرية التي تقرر استحالة وقوع مخالفة السنن الكونية كما وقع لكثير من النظريات التي قامت حيناً من الدهر ثم ماتت الى الأبد .

ثم هل وقفت العلماء على اسرار الكون كله من المشـاهدات التي نراهـا ونلمسها ولانستطيع تعليل وجودها تعليلاً صحيحاً ، فان كثيراً من المخلوقات الحية لانرى لها الا صفة الأذى والضرر ، تعالى خالقها الحكيم ان يفطرها على طبع الأذى ويرسلها على الانسان وهو الذي سخر له ما بين السماء والارض ولا يجعل لها وجهاً للنفع ، لاريب ان الانسان مخلوق جاهل بأسرار هذا الكون لم يحط بعدُ بذرة من موجوداته علماً ولم يفقه لها نفعاً . ماذا عرفت ياأخي عن العقارب والحنافس والزنابير والذباب والقمل والنـاموس والبق والبراغيث والفئران والجرذان والسـام ابرص وسائر الحشرات التي تفتك بنا وبزروعنا وثمارنا ، بل ما ظنك بالجراثيم تلحق الانسان فتؤذيه وتحل بالماء فتفسده ، فما هي فائدة هذه الحشرات وما وجوه نفعها ، الم تخلق

الا للأذى والضرر ، تعالى الله خالقها ان يجعلها هكذا ويرسلها على الانسان لأذاه وهو الذي جعله مقصوداً بالذات من عالم الدنيا وسخر له مابين السماء والارض ، ثم هو لايجعل لهذه الحشرات وجهاً للنفع .

هذه الافاعى التى بقيت عشرات الالوف من السنين مجهولة النفع عديمة الفائدة في نظر البشر ، قد اخذت الاطباء اخيراً بتركيب سمومها تركيبا كيماويا ووصفوه في بعض الحالات المرضية ، فهل من مانع ان يكون لغيرها من الحشرات شيء من الفوائد ستكشفه العلماء فى مستقبل العصور ، ان الانسان لجاهل

٣ — قال الاساتذة المؤرخون ص ١٤٦

في تفسير آية « ياايها الذين امنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » فسروا هذا النهى في تحريم مكة على الوثنين والمشركين فقط وطردهم منها وذكروا الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام (ياايها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض لايحل لامريء يؤمن بالله واليوم الاخر ان يسفك فيها دما » ثم قالوا ان المولدين ساروا في التفسير شوطا بعيدا فحرموا على اهل الذمة دخول مكة والمدينة واستباحوا دم غير المسلم اذا وطئها، ومن الواهن انه في القرن الاول بعد وفاة النبي ، كان يقيم في مسقط رأسه عدد لا يستهان به من النصارى واليهود يحترفون الطب والموسيقى ويتعاطون التجارة

اقول ان مثل هذه البحوث الاسلامية والآيات القرآنية لايصلح ان يحللها ويضع لها تفسيراً الا العالم المسلم وقد الم بجميع اطرافها وصرف جوهرة عمره في التحصيل والدراسة حتى اصبح من الراسخين في العلم الواقفين على تأويل الآيات قد احاط بالقرآن العظيم ووقف على الاحاديث النبوية والسيرة المحمدية ودرس اسباب النزول واشترطوا للمفسر معرفة كثير من العلوم اقلها اثنا عشر علما من العلوم العربية . وقد كان من الخير للأساتذة ان لايتعرضوا لهذا الموضوع بل يتركوه لاهله ،فرب الدار ادرى بالذي فيها ، ومن اتى بحكم على شيء وجب ان يلم بجميع اطرافه الماماً تاماً ليأتي حكمه صالحاً يتمشى مع الواقع ، فان الحكم على الشيء فرع عن تصوره ،فقولهم انه كان يقيم بمكة عدد لايستهان به من النصارى واليهود يحترفون.

الطب والموسيقى فهذا العدد الذي لايستهان به ، قد بلّغ الامة رسولها ان يخرجوهم حتى لايبقى بجزيرة العرب دينان ، والمولدون الذين عناهم الاساتذة هم اخلص الناس واعرفهم بما جاء به رسولهم الكريم واشدهم تعلقاً بتعلياته فقد روى مسلم في صحيحه، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا اترك فيها الا مسلماً » وروى مالك في الموطأ انه قال « لايجتمع دينان في جزيرة العرب » اوصى بذلك اصحابه وروحه الشريفة تتردد في صدره واراد بعده خليفته ان يجليهم فلم يتفرغ لذلك وكانت مدته قصيرة واجلاهم عمر في خلافته ، فالمولدون الذين عناهم الاساتذة انما استندوا باقوالهم بما رووه من هذه الاحاديث وغيرها ، لان الاحاديث النبوية تعين المعنى المراد من الآيات القرآنية . واما الحديث الذي رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا ايها الناس ان الله حرم مكة الخ. » فالدم الذي لايجوز سفكه في مكة هو دم المسلم البريء المعصوم، واذا استحق المسلم القتل بشريعة الاسلام بمكة قتل بل وجب قتله ، وقد ذكر المفسرون ان مكة لما فتحت سنة ثمان للهجرة وجاءت سنة تسع اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحج فقيل له ان المشركين يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال « لاحب ان احجّ حتى لايكون ذلك » فبعث ابا بكر بتلك السنة اميراً على الموسم ليقيم للناس الحج ، والحقَ به علياً ليؤذن بالناس باوائل سورة براءة .

خرج ابو بكر في ثلاثمائة من المسلمين قاصداً مكة والمشركون مايزالون يحجون بيت الله الحرام ، والعهد العام يومئذ ان لايُصدّ عن البيت احد ممن جاءه ولا يروع احد في الشهر الحرام ، وكانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بعض القبائل العربية عهود الى آجال مسماة ، فما دامت هذه العهود قائمة فسيظل بيت الله يحج اليه من يشرك بالله ويعبد غير الله ، واذا كانت الاصنام التي يعبدها العرب يومئذ قد حُطم الكثير منها ، وحُطم كل ما كان في الكعبة او حولها فتم بهذا في البلد الحرام شكل مغلوط على صورة متناقضة ووضع غير مفهوم ، كان الاجتماع حول البيت المقدس يضم المسلمين الثائرين على الشرك وعلى الوثنية ، ويضم المقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية .

واذا استطاع احد ان يفهم حج اليهود والنصارى جميعاً الى البيت المقدس على انه ارض المعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى ، فلن يستطيع احد ان يفهم اجتماع عبادتين حول بيت واحد تحطم فيه الاصنام ، وتعبد فيه الاصنام التي حطمت ، لذلك كان طبيعياً ان يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذي طهر من الشرك ومحيت منه كل معالم الوثنية ، وفي هذا نزلت الآيات من اوائل سورة براءة ، وابتدأ موسم الحج والمشركون قد اتى منهم من اتى من كل فج يقضي مناسك حجه . وكان اجتماع الموسم احسن اوان لتبليغهم امر الله (امهال المشركين اربعة اشهر في البلد الحرام الا من كان له عهد الى اجل مسمى فيبقى عهده الى انقضاء الاجل الوارد فيه)

ولذلك اوفد النبي صلى الله عليه وسلم علي ابن ابي طالب كي يلحق بأبي بكر ويخطب بالناس بما امر الله وبلّغ رسوله ، فلما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج وقف عليّ والى جانبه ابو هريرة ينادي فيهم ويتلو قوله تعالى (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين . واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أنّ الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم . الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فأن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) تلا علي هذه الآيات وما بعدها الى تمام الاربعين ولما اتم تلاوتها وقف هنيهة ثم صاح « ايها الناس » لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، « اي يبقى مفعول العهد الى انقضاء مدته » صاح عليّ في الناس بهذه الاوامر الاربعة ، ثم اجل المشركين ليخرجوا من ارض الحرم اربعة اشهر ليرجع كل قوم الى مأمنهم وبلادهم ، ومن يومئذ منع على غير المسلمين ان يدخلوا ارض الحرم والبلد الحرام ، ومن يومئذ لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت

عريان، ومن يومئذ وضع الاساس الذي تقوم عليه الدولة الاسلامية، وانك اذ تتلو صدر سورة (براءة) وتتفهمه بأمعان وروية لتشعر حقا بأنه جمع كل ما يلزم من الاساس المعنوي في اقوى صوره لدولة الاسلام الناشئة التي وضع اسس قيامها نبيها بما اوحى الله اليه، ثم اذا وقفت على هذه الآيات وتدبرت بمعانيها تجلي امامك الحكمة التاريخية في نزولها وانه لابدّ منها لانتظام بنيان الدولة المعنوي، فالواجب على كل دولة ناشئة تبني اساسا لنفسها ان تكون لها عقيدة معنوية عامة يؤمن بها اهلوها ويدافعون عنها جميعا بكل ما اتوا من عتاد وقوة، وايُّ عقيدة اعظم من الايمان بالله وحده لاشريك له، وايُّ عقيدة اكبر سلطانا على النفس من ان يوجه المرء نفسه لتتصل بالعالم الغيبي في اسمى مظاهره لاسلطان عليه لغير الله، ولا رقيب على ضميره غير الله

فاذا وجد الذين يقومون في وجه هذه العقيدة العامة يحاربونها في جوهر دينها فاولئك هم الفاسقون ، واولئك هم نواة الثورة الاهلية والفتنة الماحقة الذين يجب ان لايكون لهم عهد بل من الواجب قتالهم واخراجهم من بلد هي مركز لتلك العقيدة وموضع ينبوعها وارض وطنها

والنظر الى هذه المسألة من الجهة التاريخية والجهة الاجتماعية يهدينا الى مغزى الآيات الواردة في اوائل سورة التوبة، وهو يهدي الى هذا التقدير كل منصف نزيه القصد، لكن الذين اسرفوا في احكامهم على الاسلام يذرون هذا النظر جانبا ويعرضون لهذه الآيات من سورة التوبة على انها دعوة الى التعصب لاتتفق مع الحضارة المدنية من تسامح، فكيف يدعو المسلمين الى قتال المشركين وقتلهم حيث وجدوهم من ارض الحرم في غير رفق ولا هوادة

وهو كلام لايتفق مع الحقيقة التاريخية ولا يتفق مع الحقيقة الاجتماعية في شيء، وهو لذلك يؤدي لتفسيرهم القرآن العظيم تفسيراً يأباه منطق الحوادث في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تمام الأباء وتأباه حياة النبي العظيم في تسلسلها من يوم بعثه الله للدعوة الى الحق الى يوم اصطفاه الله اليه

وليس لأحد ان يفسر لنا الآية الكريمة بعدما بين لنا المراد منها الرسول العظيم

قبل التحاقه بالرفيق الاعلى بقليل، وطبيعي ان لا يذكر فيها احد مهما بلغت منزلته العلمية وجها آخر معارضا في تفسيرها النبي الذي انزلت عليه

٤ ـ قال الاساتذة اصحاب التاريخ ص ١٨١

ولقد نسج الاسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس، الا انه تأثر من بعد بطقوس صلاة الاحد التي يمارسها النصارى في البيع

قبل ان افند هذه المزاعم الباطلة اريد ان اصرح بجملة اراها تثور في نفسي كلما رأيت انحرافاً عن جادة الصواب وادركت ان هؤلاء الذين زعموا انفسهم مؤرخين في الاسلام يجافون الحقيقة عن عمد او عن جهالة . لقد أساء الاساتذة بهذه الاقوال الى مسلمي الارض وما كان عليهم بأس ان يفعلوا لو وافقوا التاريخ ونزلوا على حكم الواقع وايدوا قولهم بالبرهان، ولكنهم قد نبذوا الحقيقة وراء ظهورهم وغلبت عليهم صبغتهم حتى ابتعدوا، فليتهم حينما الهموا ان يكتبوا في تاريخ العرب، توفقوا لضم عالم مسلم الى جمعهم يجنبهم مواقع العثار ويبعدهم عن مواطن الخطل فيما خفي عليهم من تاريخ الاسلام والعرب، لقد عثروا هذه المرة عثرة شنيعة حينما اغمضوا عيونهم عن الحقيقة الراهنة وتمادوا مع الاوهام الباطلة حتى زلت بهم القدم والقت بهم في وادٍ سحيق، وهكذا كل من يتعرض لموضوع ليس من اختصاصه ولا هو داخل بدائرة علمه، فلا يأمن من الخطأ بل يتورط بالقول فيما لايعلم، و «لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف» ان عليكم ايها الاساتذة ان تتابعوا دراساتكم وتتعمقوا بها لتأخذوا بحظ اوفر من تاريخ الاسلام . لقد كان من نفسية الرسول التباعد عن طقوس اليهودية والنصرانية، ولم يروَ عنه قط انه استحسن شيئاً من عبادة هؤلاء او اقتبس شيئاً من طقوس دينهم. ولنا ان نسأل الاساتذة هل كان قد نسج الاسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود والنصارى في ايام النبوة او بعدها، فأن كان ايام النبوة، فقد انزل الله عليه الأمر بالابتعاد عن هذا فقال تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير) سورة البقرة آية ١٢٠ والنبي اولى من اتبع ماانزل عليه من ربه ولقد انزل عليه ربه

(ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه حاجزين) والوتين نياط القلب الحاقة اية ٤٤

سار المسلمون في اثر نبيهم يتتبعون سبيله ويأخذون بأقواله وافعاله ، ولا يرون هداية في دين غيرهم فكيف يتبعونها بل يعرفون ، ان هدى الله الذى انزل على محمد بن عبد الله هو الهدى ، وقد امروا ان يسلموا لله رب العالمين

وان زعمتم ان الاسلام نسج في ترتيب صلاة الجمعة فيما كان بعد زمن النبوة فعلينا ان نحدثكم الى اي مدى بلغ المسلمون في تأسيهم بنبيهم الكريم ، ليس من امة في الارض متبعة لاوامر رئيسها العظيم متمسكة بشكل عبادتها اكثر من المسلمين في حرصها على اتباعه والانقياد لسنته والسير في سبيله والاهتداء بقوله وفعله ، حتى فيما لا يعدّله شأن ، لم يأكل بعض الائمة المجتهدين البطيخ طول عمره لانه لم يثبت عنده كيفية اكل النبي له ، واكله غيره لأنه ثبت لديه ، انه يتناول القطعة اولاً عن يمينه حتى اذا انتهى لنصفها ادار الباقي لليمين فأكله ، اترى المسلمين يجازفون بأعظم فريضة في دينهم فيقلدون بها غيرهم ، الحق ان لهم استقلالا ذاتيا في دينهم ، فهم لا يبدلون صلاة الجمعة ولا يقتبسونها عن احد حتي تقوم الساعة او يلج الجمل في سم الخياط و كذلك يفعلون

لقد تحرى علماء المسلمين النقل الصحيح فنقلوه بطريق التواتر من جماهير عظيمة الى جماهير عظيمة يحيل العقل تواطئهم على الكذب حتى اوصاوه لأمتهم وصانوه عن الضياع واحاطوه بالحفظ ودوّنوه في كتبهم وعلموه لبني قومهم ، وليس عليه اية مسحة اواثر من تعاليم غيرهم ، فكما لا يبدل المسلم قرآنه فهو لا يبدل صلاته

ان علماء الدين الاسلامى من محدثين وفقهاء ومجتهدين قد بذلوا منتهى ماتتصل به الطاقة البشرية من ضبط النقل حتى اتصلت بنا الاوامر والنواهي كما شرعها الله وبلغنا اياها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم خالصة من الشوائب نقية من الدسائس

لقد اخطأتم ايها الاساتذة مواقع النظر فأشبهتم بعملكم هذا ما كان يفتريه رهبان القرون الوسطى في اوروبة على الاسلام والمسلمين ، وما كانوا يأتونه من بهتان مبين ، فهل تريدون ان تعيدوا الكرة بسلاح جديد من هذا النوع ، اريد ان اضرب لكم مثلا

على مدى تحري المسلمين فيما يتعلق بأمر دينهم ولنجعل القرآن العظيم موضوع بحثنا ، انك اذا اخذت مصحف عثمان ثالث الخلفاء الراشدين ، وهو اقدم مصحف في العالم وطابقت بينه وبين مصاحف اليوم لا تجد تحريفا عن اصل الرسم قط في جميع القرآن، هذا من حيث الرسم ، واما من حيث النطق فكيف نطابق بين لهجاتنا الحاضرة وبين الفاظ كلمات الرسول عندما كان يتلو الكتاب الذى انزل معه لتكون قرائتنا مع تلاوته في تشابه تام وعلى النحو الذي كان يلفظه هو واصحابه وسائر العرب

ولتأمين هذه الغاية وضع العلماء « علم التجويد » اخذوه من تتبع اللهجات العربية في صميم القبائل ، متتبعين مناهجها واصول التلفظ بأخراج كل حرف من مخرجه

(وعلم التجويد) ، يبين لك كيفية النطق بالكلمات واعطاء كل حرف حقه بحيث يخرج من مخرجه الاصلي، فيحدد لك متى تفخم اسم الله العظيم ومتى ترققه، ومتى ترقق الحرف ومتى تفخمه ومتى يجوز لك الوجهان ومن اين تخرجه ، اهو من الحلق من اعلاه ام من ادناه ، من اللثة ام من الشفتين ؛ ومتى تعطيه حقه من الأشمام بحيث يخـــرج من الخيشوم « والخيشوم عظمة في منتهى الانف » ويبين لك الوقف على الكلمات ، كما يبين لك السكتات.

ثم علموا فيه اي الحروف تعطيها صفة النبرة لتحصل منها القلقلة، وبينوا فيه المدود وحـدّ كل مـدّ وطوله، ووضعوا بهذا العلم بيانا للأدغام واقسامه والاخفاء واقسامه، والاظهار واقسامه وشرحوا لك الاقلاب، اي متى تقلب الحرف لحرف آخر عند النطق به على نحو ما كان يلفظ العربيُّ العريق في عروبته ، وحفظت هذه الاصول بين الجماهير الاسلامية يتلقاها بطريق التواتر العام جمهور عظيم عن جماهير عظيمة حتى اتصلت بنا ، فصرنا الى هـذا الزمن اذا انصتنا الى تال للقرآن العظيم بالراديو مثلاً ولو من اقصى الارض بشرط ان يكون واقفاً على هذه الاصول مراعياً لأحكامها ، فكأننا نسمع كلام الرسول الذي انزل عليه هذا القرآن ، وتأصل روح النطق السليم الذي كانت عليـه العرب العريقـين بكل مـن حفظ هـذا العلم وتمرن على قواعده وبالاخص عند تلاوة القرآن العظيم فجاءت قراءته خالصة

من عجمة النطق .

اقتداء القراء برئيسهم العظيم

حدثني بعض حفظة القرآن ممن تلقاه عن بعض المشايخ بمصر، وكان شيخه كفيف البصر، فلما انهى دروسه طلب اليه ان يعطيه شهادة بأتمام دراساته، فامتنع الشيخ وقال له، بقي عليك امتحان آخر لايستطيع اخذه الا الرجل البصير، ثم ان الشيخ استدعى شاهدي عدل وامر الطالب ان يتلو سورة الفاتحة وامر الشهود ان يديموا النظر في وجه الطالب، فلما وصل الى قوله (اياك نعبد واياك نستعين) ووقف سألهما الشيخ هل ضم شفتيه، فشهدا بضم شفتيه فبارك الاستاذ للطالب بنيل الشهادة وقال، هكذا تلقينا عن مشايخنا من طريق التسلسل المتصل بالرسول العظيم الذي انزل عليه هذا القرآن، انه عندما كان يقف على فعل مضارع مرفوع يضم شفتيه، وهذا الضم انما هو حركة شفوية ليس لها ايُّ صوت او ايُّ اثر عند النطق، انما كان يفعله الرسول صلى الله عليه سلم

فأنشد المنصفين الله، هل تضيع الامة التي بلغت هذه الحدود بالتحري عن امور دينها، اعظم ركن من اركان عباداتها واكبر فرض من فرائض صلاتها « صلاة الجمعة » فتتأسى بعبادة اليهود والنصارى وتتأثر بطقوسهم وهي مأمورة ان تتلو في كل ركعة من ركعات صلاة الجمعة وغير الجمعة (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ايها الاساتذة المؤرخون ، هل تريدون ان اقول الحق والحق اقول ، انه لايوجد على وجه الارض احد من رجال التاريخ اصحاب الاديان، من تتأسى امته باقواله وافعاله كمحمد بن عبد الله عليه صلاة الله ، وهو انما كان لايرضى الاقتداء بأحد من اصحاب الاديان التي سبقته ، وانما يوافقهم في اثبات وجود الله وانه رب العالمين وخالقهم ، ويخالفهم في التثليث والبنوة والأبوة والأمومة لله تعالى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

صلاة الجمعة وتاريخها

ولنبين صلاة الجمعة وتاريخها وكيفيتها لنرى هل عليها مسحة من طقوس غيرها التي زعمها الاساتذة انها اثرت على هذه العبادة الاسلامية فنقول : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً الى المدينة نزل قباء يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الاول ولم يكن يومئذ قد وضع التاريخ الهجري ٢٠ ايلول سنة ٦٢٢ وقباء من ضواحي المدينة لا احسب انها تبعد عنها اكثر من اربعة كيلومترات فأقام فيها احد عشر يوماً وتركها يوم الجمعة ، فلما سار ادركته صلاة الظهر في بني سالم عند وادي ذي صُلب ، فوقف ووقفت جموع المحتشدين والمحتفلين به ، وكانت الناس امامه وخلفه وعن يمينه وشماله ، واعلنهم بما فرضه الله عليه وعليهم من صلاة الجمعة ، فكانت اول جمعة صلاها المسلمون بالمدينة ، فوقف خطيباً وقال « الحمد لله احمده واستعينه واستغفره واستهديه واؤمن به ولا اكفره ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمداً عبده ورسوله ، ارسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الاجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً ـ الى ان قال ـ ان الله كتب عليكم الجمعة في مقامي هذا في ساعتي هذه في مشهدي هذا في عامي هذا الى يوم القيامة، من تركها من غير عذر مع امام عادل او امام جائر، فلا جمع له شمله ولا بورك له في امره، الا ولا صلاة له، ولا حج ولا بركة ولا صدقة ـ وختم خطبته بقوله ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ثم صلى بالجماعة صلاة الجمعة ركعتين وسلم ، فهذه صورة صلاة الجمعة عند المسلمين ، يصلونها كما فعل نبيهم ظهر يوم الجمعة من كل اسبوع ، لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل الى اليوم . ولنا ان نسأل الاساتذة اي مسحة او اي اثر من اثار اليهودية او النصرانية على هذا العمل . وهناك فوارق كثيرة بين صلاة الجمعة وبين طقوس صلاة

الاحد التي يمارسها النصارى في البيع واليك بعضها :

١ — لايشترط المسلمون لصلاة الجمعة مكانا معيناً كالمسجد او الجامع مثلاً فقد قال لهم نبيهم « جعلت لي الارض مسجداً وطهورا » وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطن الوادي كما مرّ بك آنفاً

يشترط اليهود والنصارى لصلاة السبت والاحد ان تقام في معابدهم ولا تصح عندهم في غيرها .

٢ — يتحرى المسلمون في صلاة الجمعة ان تكون بعد الزوال وقبل تضاعف الظلال فلا تصح في الضحى ولا في الاصيل ولا تعاد في اليوم الواحد الا مرة واحدة

يكرر اهل الكتابين صلاتهم الاسبوعية عدة مرات في اليوم ولا يتقيدون بوقت معين كما يفعل المسلمون .

٣ — لم تزل صلاة الجمعة عند المسلمين تتألف من خطبة يخطبها الامام على المنبر والناس منصتون ، يحمد الله ويثني عليه ويوحده وغالباً يتلو بعض آيات قرآنية ويفسرها ببعض احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ينصح الناس ويعظهم بأمر دينهم ودنياهم ، واذا حضرت النساء جلسن في مكان منعزل عن الرجال لايخالطنهم ثم ينزل الامام فتقام الصلاة فيصلي بهم ركعتين يقتدون به في قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه وتسليمه فيمثل المسلمون بهذا العمل حالة خشوع وخضوع واخلاص لاحدّ لها ، تتوجه قلوب المؤمنين الى بارئها بوقت واحد في جميع الارض واذا وقفت على هذا عرفت المراد من قوله تعالى في سورة الزُمُر آية ٢٢ و ٢٣ (أفمن شرح الله صدره للأسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين . الله نزّل احسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) .

واما صلاة النصارى يوم الاحد فأنهم يجلسون على الكراسي ثم يأتي القسيس فيخطب خطبته ، وغالباً انما تكون ذكر وقائع تاريخية ثم يأتي دور الترنيمات والاناشيد فترتفع اصوات النساء والرجال على انغام المعازف ، وربما حنو رؤوسهم

احيانا وليس في صلاتهم ركوع ولا سجود فما هو وجه الشبه بين العبادتين الذي زعمه الاساتذة .

٥ - قال الاساتذة المؤرخون ص ١٧١

ولا يذكر القرآن من اشخاص الانجيل ذكراً واضحاً الا زكريا ويوحنا المعمدان « يحيى » ويسوع « عيسى » ومريم والاسمان الاخيران يغلب ورودهما معاً ، ومريم ام عيسى هي بنت عمران واخت هرون في وقت واحد .

انا لااريد ان ابين هنا مراد الاساتذة من الجملة الاخيرة واترك ذلك لحذاقة القارىء وسلامة ذوقه واقول :

ان هرون اخا موسى عليهما السلام هو ابن عمران ومريم هي ابنة عمران، وبينهما كما يقول المؤرخون اكثر من ١٤٠٠ سنة فكيف تكون اخته، هذا هو اعتراض الاساتذة المؤرخين، لقد حملوا الاخوة على النسب وليس الامر كذلك .

كان هرون بن عمران عليه السلام يضرب به المثل في قومه بكثرة التقى والنشاط فى العبادة، وكانت السيدة مريم البتول ابنة عمران كذلك كثيرة العبادة شديدة النسك والطهارة بريئة عفيفة، فلما اتت قومها تحمل ولدها المسيح عليه السلام عجبوا منها لأنها غير ذات زوج، ولم يكن احد ينتظر منها ان تأتي بفاحشة فقالوا لها « ياأخت هرون » اي ياشبيهة هرون في العبادة والتقى، كيف ارتكبت هذا الاثم العظيم والفاحشة المنكرة، قرنوها مع هرون بالاخوة من حيث كثرة العبادة ولم يريدوا انها اخته في النسب، انهم يعلمون ان بينها قروناً كثيرة وزمانها مختلف، ولو لم يكن المراد في الآية الكريمة اخوة التقوى والمماثلة في العبادة لم يقولوا لها « ياأخت هرون » لأنه لم تجر عادة الناس اذا ارادوا مناداة امرأة ان يقولوا لها ياأخت فلان بل يافلانه .

ولو مرّ بهذه الجملة احد من نوابغ علماء العربية المسيحيين كالشيخ ابراهيم اليازجي او الشيخ ناصيف اليازجي او بطرس البستاني او سليمان البستاني او بطرس كرامه او غيرهم ممن توغلوا في العلوم العربية ووقفوا على اساليبها لما عنّ لهم مثل هذا الاعتراض، ان الاساتذة يعوزهم التوسع في الدراسات العربية ليأخذوا بحظهم منها

فامامهم شقة واسعة ومهيع بعيد لتفهم مرامي القرآن العظيم والوقوف على اساليبه .

ان الاخوة التي لم يفهم منها الاساتذة غير اخوة النسب يستعملها العربي الصميم لمعان كثيرة، والقرآن العظيم انما جاء بلغة العرب وعلى مناحي اساليبهم، منها اخوة النسب المعروفة، واخوة الشبه والمماثلة فيقول العربيّ فلان اخو فلان، يريد تشبيهه به لصفة تجمع بينهما، كالكرم او الشجاعة او الفصاحة وحسن البيان، او شرف المحتد، او الجبن والبخل او الظلم والاذى وغير ذلك، واخوة الانسانية كما ورد في الحديث « المؤمن اخو المؤمن احب ام كره » واخوة الصداقة والصحبة كما تقول لصديقك « ياأخي » وهل هو حقيقة ولدته امك، والشريكان عند العرب اخوان ومنه ورد في القرآن العظيم (ان هذا اخي له تسعٌ وتسعون نعجة) يعني شريكي سورة ص آية ٢٣، واخوة الدين ومنها ورد في القرآن العظيم (انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) الحجرات آية ١٠ ، فهل الاخوة في الآية الكريمة اخوة النسب ياترى كما فهم الاساتذة، فهذه ست معان للأخوة والقرينة دائما تعين المراد منها .

وقد روى المغيرة بن شعبة وهو امير المؤمنين في الحديث قال لما قدمت من خُراسان سألوني فقالوا انكم تقرأون هذه الآية «ياأخت هرون» وهرون اخو موسى قبل عيسى بكذا وكذا سنة قال لما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال « انهم كانوا يسمون بأسماء انبيائهم والصالحين فيهم » وهذا يحتمل ان يكون يومئذ في بني اسرائيل تقي صالح يشبه السيدة مريم في كثرة عباداتها وتقواها اسمه هرون فلما قالوا لها ياأخت هرون ارادوا به هذا الرجل المعاصر من صالحي بني اسرائيل المنقطعين للعبادة، او ارادوا به هرون اخا موسى عليها السلام لما بينهما من جامعة التقى والعبادة

ليت الاساتذة تناولوا احد تفاسير القرآن العظيم التي لديهم قبل ان يكتبوا هذا التعريض الخاطيء وينشروه في اقطار الارض بلغات تسع، ان القرآن العظيم منزل من لدن عليم خبير لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على قوم بلغوا ابعد حدود الفصاحة في لغتهم العربية .

فكيف يستطيع احد ان يتفهم مقاصده العظيمة وهو في افق ضيق من هذه اللغة، ام كيف يجري في هذا الميدان ثم هو لا يخشى العثار، الحق ان كثيراً من الناس من يعيب الاقوال الصحيحة بينما يكون الخطأ قد اتى من جهته، والاعجب من هذا انه مطمئن الى صحة مايقول .

٦ — قال الاساتذة ص ٢٣١

وكان شعار النبي العقاب .

ويفهم القارىء بهذا اللفظ الموجز اذا اعتبرنا ان الكلمات موضوعة لمعانيها، ان للرسول عليه الصلاة والسلام شعاراً خاصاً له صورة طير العقاب، على نحو ما تفعله الدول من اتخاذ كل حكومة شعاراً خاصاً بها ، وليس هذا من الحقيقة بشيء ، وهو انما كان يمقت الصور والتماثيل وينهى عنها للقضاء على الوثنية التي أمر بمحوها .

انما العقاب اسم لاحدى رايات الرسول عليه الصلاة والسلام اتخذها في احدى غزواته، كانت سوداء من صوف اصلها ستر لباب زوجه عائشة، فالشعار غير الراية، وانما غلط الاساتذة بوضعهم كلمة شعار موضع كلمة راية، ولم يبلغنا ان الرسول العظيم اتخذ شعاراً قط، ولم يكن يقتني شيئاً داخل بيته او خارجه الا وله اسم خاص به سواء كان ذلك المتاع فراشاً او غطاءً او اناءً او صحناً او قميصاً او جبة او اي شيء آخر، فمن ذلك انه كان اسم بعض راياته العقاب ودروعه، ذات الفضول وذات الوشاح وذات الحواشي والبتراء ومغفره « طاسة الرأس للحرب » السُبوغ وقوسه الكتوم وخيوله يعدها للجهاد السكب والسبحة والمرتجز واللزاز والظرب واللحيف والورد وبغلته دلدل وحماره يعفور وناقته المعدة لركوبه القصواء وسيوفه المأثور والعضب والبتار وذوالفقار وفسطاطه الكنّ وقصعته الغراء وكانت له خمس واربعون ناقة لكل واحدة اسم خاص، فمنها اطلال واطراف وبردة والبغوم وحناء ورمزة، وكانت له شاة يختص بشرب لبنها تدعى غوثة او غيثة، وليس رسم صورة العقاب شعاراً له .

٧ — قال الاساتذة اصحاب تاريخ العرب ص ٥٤

وان صح ان ملكة سبأ ، وفي القرآن بلقيس، هي شخصية تاريخية وانها قدمت

الى ملك اسرائيل الحكيم بعطايا طريفة مما امتازت به ارض الجنوب « اي جنوب جزيرة العرب ، اليمن » .

اقول لم يذكر القرآن العظيم اسم بلقيس قط ، وانما ذكرت بأسم ملكة سبأ حيث يقول (وجئتك من سبأ بنبأ يقين اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) هذه القصة لم ترد بالقرآن الامرة واحدة سورة النمل آية ٢٢ فأين اسم بلقيس اذاً . احسب ان من واجب المؤرخ ان يكون امينا في النقل سديد الرأي في ذكر الحوادث التاريخية التي يعرض لها ليكتب عن قناعة وجدانية مع صحة نظر وامانة .

اذا كانت الاساتذة يرون ان اسم بلقيس وارد في القرآن العظيم فليذكروا لنا بأي سورة هو فلعلهم يعرفون منه ما نجهله .

٨ — قال اصحاب تاريخ العرب ص ١٧٠

« فالسور المكية وهي نحو تسعون راجعة لعهد الجهاد في حياة النبي »

الا ترون معي ايها الاساتذة ان السور المدنية هي التي انزلت بالمدينة ، والسور المكية هي التي انزلت بمكة ، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يباشر حرباً قط بمكة الحرام قبل الهجرة لأنه لم تكن قد توفرت له القوة بعد ليناجز اعداءه الوثنيين الحرب بل السور الراجعة لعهد الجهاد هي مدنيّة بجملتها ، وان كنتم على يقين مما ذكرتم فهل لكم ان تذكروا لنا حادثة حرب واحدة والنبي كان مقيما فيها بمكة .

ايها المؤلفون لتاريخ العرب انما الحروب النبوية كانت بعد الهجرة للمدينة انحاز النبي صلى الله عليه وسلم لأهلها فتوفرت له منهم القوة فقام يعلن الجهاد على قريش يهديهم للاسلام وينهاهم عن الاصنام لقد برهنتم بمثل هذه النصوص الخاطئة عن ضعف في الغاية بتاريخ الاسلام ، وكان الاولى بكم ان تقبعوا في دوركم عن ان تطلعوا على الناس بمثل هذه الاخطاء الفاشلة .

٩ — « قال الاساتذة ص ١٨٢

عن احكام الزكاة انها انقلبت فريضة تفرض على العقار والمال والانعام والحبوب والثمار والتجارة — الى ان قالوا — ولقد تغيرت مقادير الزكاة على مرّ الزمان الا انها

تتعين دائما بالرجوع الى الفقه . والزكاة على العموم تبلغ اثنين ونصف بالمئة من الاصل الذي تجبى منه ، وهي تضرب على كل انواع المال حتى ان معاشات المتقاعدين لم تكن لتعفى منه .

اقول ان المسلم الذي يعرف احكام الزكاة ودرس تاريخها ليعجب من هذه الاقوال التي لاتتفق مع الواقع والتعاليم الاسلامية ولا قواعدها القويمة ، بل يدرك بالبداهة ان القائل قد افترى على الحقيقة التاريخية وخالف احكام الزكاة المنقولة الينا جيلاً بعد جيل حتى اتصلت بنا عن صاحب الشريعة العظيم ، ولا يبلغ احد مهما جادل بالباطل الاتيان بقول مؤرخ حتى ولا مجازف منهم يقول ان مقادير الزكاة قد تغيرت في الاسلام مع الايام منذ بلغها النبي الكريم لأمته ، ومن محن الايام ان يقول هؤلاء المؤرخون ، ان نفس العقارات واجب فيها الزكاة ، ومع محاكمة بسيطة نعلم ان ذلك مخالف للمعقول ، ارأيت لو ان عقارا تساوي قيمته اربعين الف ليرة وكان صافي وارداته يبلغ اثنين ونصف بالمئة ، فاذا اعتبرنا ما قاله الاساتذة صحيحاً فيكون الاسلام قد كلف المالك ان يدفع هذا الوارد جميعه في سبيل الزكاة ، ومثل هذا الظلم يبتعد عنه الاسلام فلتأت الاساتذة بالمصدر الذي نقلوا عنه ان نفس العقارات عليها زكاة . وها انا اريد ان ابين شيئاً عن تاريخ الزكاة واجمل طرفاً من احكامها لتقابل بما ورد في كتابهم « تاريخ العرب »

كانت صدقات التطوع في ابتداء الاسلام يترك مقدارها قبل ان تفرض الزكاة لذمة الاغنياء في شتى المناسبات وبحسب مايقدره المسلم لحاجة اخيه الفقير ، وحث عليها القرآن وامر المؤمنين بفعلها وحضهم عليها ، وبشر المتصدق بأجر عظيم ، وانذر المانع بوعيد شديد في مواضع كثيرة من القرآن العظيم وقال الرسول بهذا المعنى كلمته الخالدة التي تعمل بأقسى القلوب وتحركها اذ قال « الصدقة تطفيء غضب الرب » وبعد بضع سنوات من الهجرة فرض الله الزكاة علاوة على صدقة التطوع واوجب صرفها لثمانية اصناف من المسلمين ارباب الحاجات قال (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) التوبة ٦١ وعين الرسول عليه

السلام مقدارها في النقد وسلع التجارة والأثمار والحبوب والانعام، فالمسلم الذي يملك نصاب الزكاة من النقد وهو عشرون مثقالاً من الذهب او ما يعادل هذه القيمة من الورق بعصرنا الحاضر ثم تمضي عليه السنة ولم يحتج لهذا المبلغ بحيث يكون زائداً على نفقاته الاصلية تفرض عليه الزكاة ويعتبر اول سنة الزكاة من يوم تملكه النصاب، ومنها عظم المبلغ يخرج منه ربع العشر ٢،٥ بالمئة ومثلها سلع التجارة، وهذه التعاليم تقبلها المسلمون منذ زمن النبوة الى الوقت الحاضر، والعقارات لايدفع عنها زكاة الا ما حصل من ريعها بالشروط المذكورة يضاف لأصل المال، اما معاشات المتقاعدين فليس لها حكم خاص بل انها تضاف لسائر المال وتجري عليها الاحكام المار ذكرها كواردات العقارات، فمثلاً، فلان المسلم له تقاعد يدر عليه وله عقارات تأتيه واردات وله تجارة رابحة وهو ينفق من جميع ذلك فتبدأ سنته للزكاة من اليوم الاول الذي تمّ لديه النصاب فأذا انتهت السنة والنصاب تام او زائد عليه اخرج زكاة جميع ما عنده من مال اثنين ونصف بالمئة فجلي اذاً ان معاشات المتقاعدين لاتخضع لاحكام الزكاة الا اذا توفر لاصحابها منها قيمة النصاب ومضى على هذا الوفر سنة كاملة، اما اذا لم يتوفر منها شيء فبديهيٌ ان لايفرض فيها زكاة.

١٠ — قال الاساتذة اصحاب تاريخ العرب ص ١٨٤

« والعمرة اقل اهمية من الحج الحقيقي وهي عبارة عن زيارة لمكة يقوم بها المسلم متى شاء وفي الوقت الذي يريد ».

اقول: حين يتحدث العوام من حجاج بيت الله الحرام عن العمرة يقتصدون في العبارة فيقولون: انها زيارة بيت الله الحرام وليس الامر كذلك، اما الفقهاء واهل العلم فيعرفون انها زيارة بيت الله الحرام على وجه مخصوص بعمل مخصوص، فمن اراد العمرة وهو في ارض الحل قبل ان يدخل المنطقة الحرام، يتجرد فيها من الثياب المخيطة ومن كل مايحيط بالجسد منها ويترك الطيب والزينة، وينوي العمرة والنسك، ثم يرتدي ثياب الاحرام وهي قطعتان ازار ورداء غير مخيطين، ويأتي الكعبة المشرفة فيطوف حولها سبعة اشواط ويخرج الى الصفا فيسعى بينها وبين المروة سبعة اشواط، ثم يقصر شعره او يحلقه ويتحلل بأعادة ثيابه وقد تمت عمرته،

فالعمرة اذاً عبادة كعبادة الحج الا انها لاتحتاج الى وقوف بعرفة ولا مبيت بمزدلفة ولا رمي جمار بمنى ولا تتقيد بزمان ولا يحتم على المرء ما دام خارجا عن المنطقة الحرام ان يبتديء بها من مكان معين .

١١ — قال الاساتذة ص ١٨٤ ايضاً :

« يلج الحاج العتبات المقدسة محرما (لابسا الازار وهو قطعة واحدة من قماش غير مخيط) فيطوف حول الكعبة سبعاً ثم يتم السعي اي يجتاز سبع مرات بين جبل الصفا والمروة ، ولا يبدأ الحج الحقيقي الا بالمسير الى عرفة في اليوم السابع والثامن من ذي الحجة . اما الوقوف في المواقف فعند حرمي عرفـــة وهما المزدلفة ومنى ورميُ الجمار « الحجارة » يتم على الطريق المؤدية الى وادي منى عند جمرة العقبة . ثم تقدم الذبائح عند منى وبه تنتهي فريضة الحج رسمياً . »

اقول : اما ان ثياب الاحرام قطعة واحدة فذاك الكفن يدرج به المسلم بعد الموت ، بل تزاد الاكفان احياناً الى السبع ، فليت الاساتذة تفكروا قليلاً ليروا كيف يتسنى للانسان ان يلف نفسه بقطعة قماش واحدة غير مخيطة ثم تستقيم حالته غير مضطرب ، بل ليت الاساتذة وقفوا بأحد مطارات البلاد الاسلامية ايام الحج وشاهدوا الحجاج بلباس الاحرام ليعلموا هل يتفق كلامهم في كتاب تاريخ العرب مع الواقع .

ولو اتخذ الحاج ما ذكره الاساتذة دستوراً للعمل بأعمال الحج لرجع خائبا ولم يكن بعرف الشريعة الاسلامية حاجاً قد ادى الفريضة التي هي ركن الاسلام ، فهذه الجمل لاتؤدي المعاني المقصودة من التعاليم التي وضعها الشارع الاسلامي لجهة مناسك الحج واركانه وواجباته وسننه وسائر احكامه ، فمثلاً قولهم ان تقديم الذبائح تنتهي به فريضة الحج رسمياً لايطابق الواقع ، بل يجب على الحاج اذا غادر عرفات ان يأتي المزدلفة فيبيت فيها ويأخذ منها تسعاً واربعين حصـاة بحجم الفولة الصغيرة ، ثم يأتي منى بعد الفجر ، ويرمي جمرة العقبة بسبع حصيات (الجمرة اسم البقعة) ثم يذبح ان وجب عليه الذبح ثم يحلق او يقصر ، ويحل له بعد ذلك كل شيء الا النساء والطيب ، وفي اليوم الثاني يرمي جمرة العقبة الاولى بعد الزوال ثم يرمي الجمرة الثانية ثم الجمرة

الثالثة بسبع حصيات في كل جمرة ، و كذلك يفعل في اليوم الثالث من مجيئه الى منى ، ثم ينزل الى مكة بعد زوال اليوم الثالث عشر من ذي الحجة ان لم يكن قد نزل في اول يوم النحر او في ثانيه فيطوف طواف الافاضة ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً وحينئذ يكون قد تمّ حجه . ولو اخذت بشرح اعمال الحج كلها لصعب تصورها نظرياً ولا بد فيها من مباشرة العمل .

لقد اخطأ الاساتذة في شرح اعمال الحج الاسلامي اخطاء كثيرة وهكذا يفعل كل من يتكلم عن دين ليس هو من اهله ، ولو ان احد علماء الأسلام تعرض لشرح العقد اللاهوتية ، او الاسرار الرمزية ، او مراتب الكهنوت وما رتبته اصول الرسامة ، والمسح ، والتكريس ، والعماد ، والاعتراف ، والقربان ، والخلافة الرسولية ، لربما عثر كما عثر مؤلفوا تاريخ العرب ، الا اذا توفرت له دراسات واسعة في هذه المواضيع التي هي في صميم الدين المسيحي ، والمسلم لا يجوز له ان يجول فيها قبل ان يدرسها درساً تاماً ، كما لا يجوز لهؤلاء المؤرخين ان يتعرضوا لهذه المباحث التي لا يعرفونها فهي ليست من دينهم ولا واردة فيه ، ولعلي لا اكون مخطأ في اعتقادي ان المسلم اذا وقف على ما شرحه هؤلاء الاساتذة من مناسك الحج وما ذكروه من احكامها فسيضحك اما في سره او تظهر التبسمات في تقاسيم وجهه .

١٢ - قال الاساتذة اصحاب تاريخ العرب

« فالنظرية التي تقسم البلاد الى المفتوح صلحاً والمفتوح عنوة لم تكن الا تفسيراً متأخراً اخذ بها القوم من بعد ولا اصل تاريخي لها ، و كذلك شأن تفريقهم بين الجزية والخراج فالتمييز بينهما لم يكن معروفاً ايام الخليفة الراشد الثاني ، ولم ترد اللفظتان في العصر الاول الا بمعنى واحد مترادف اي الضريبة على التعميم (الى ان قالوا) اما وجوه الاختلاف بين الجزية والخراج فلم تعين حتى اواخر العصر الاموي » .

اقول ان الضرائب التي يفرضها الاسلام على مواطني البلاد وسكانها غير كثيرة بالاصل ، فلما افتتحت البلاد ايام عمر رضي الله عنه تقررت الضرائب الشرعية على الاراضي فيما استنبطه اصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام من نصوص الشريعة ،

فكانت قسمين عشرية وخراجية ، والعشر والخراج لايجتمعان ، فأن وقع اجحاف على الارض الخراجية نقص منه بالعدل ، وان زاد الوارد لايزاد فيه عما كان بايام عمر بن الخطاب باجماع الأمة .

فأرض العرب وحدّها اول الشام وبلاد الكوفة الى اقصى اليمن عشرية ، ما عدا مكة فانها خراجيـة ، وارض الشام ومصر والعراق خراجية ما عدا البصرة فأنها عشرية باجماع الصحابة .

والعشر ان يؤخذ واحد من عشرة مما تنتجه الارض خالصاً من كل كلفة ، والخراج ضريبـة موضوعـة على رقبـة الارض لايزاد فيها حسبما ذكر آنفاً ، اما الجزية فهي اسم للمال المستوفي من اهل الذمة سكان البلاد الاسلامية بمقابل الحماية وتأمين العدالة ، ولم يستعمل القرآن العظيم كلمة جزية الا بمعنى ضريبـة الرؤوس الموضوعة على اهل الذمة من سكان البلاد الاسلاميـة ، وتبع الفقهاء والناس استعمال القرآن العظيم ، فلا يقولوا استوفى الجابي جزية الارض بل خراجها ، وفي ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابدلت اهل الذمة كلمة جزية بكلمة جالية (تجمع على جوالي) فقيل ذلك لعمر فقال دعوهم يسمونها ما شاؤا ، وبقيت كلمة جزية شائعة بين المسلمين الى ان تملكت الدولة العثمانية ، فأبدلت بكلمة (فردية او عسكرية) الى ان كانت الحرب العمومية الاولى فصدرت الاوامر بجمع اهل الذمة وسوقهم للحرب وعلى اثرها ابطلت هذه الضريبة من البلاد ، اما ما يستعمله البعض من وضع كلمة خراج موضع كلمة جزيـــة فليس الامن باب التساهل في التعبير الذي لا يأتي في صميم الاستعمال العربي ، فليست كلمة خراج وجزية مترادفتين كما زعم الاساتذة والقرآن العظيم اعظم شاهد على ذلك قال الله تعالى .

(قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) سورة التوبة آية ٢٩ فالمقصود بالجزية ضريبة الرؤوس كما ترى .

١٣ - قال الاساتذة اصحاب التاريخ ص ١٨٨

« هذا وقد نسخ الاسلام في ميدان الاجتماع قانون القبائل المبني على علاقة الدم

واستعاض عنه بأخوة دينيـة ثم ذكروا في ص ٢٢٧ : ماينـاقض ذلك : قالوا وكان الاعجمي ولو قبل الاسلام في منزلة دون منزلة المسلم العربي »

الا يرى القاريء ان قول الاساتذة الاول يناقض الثاني ، والقول الاخير غير صحيح لمعارضته لتعاليم الاسلام ونصوص القرآن العظيم ،والحق ماذكروه اولاً ، لقد وقف محمد صلى الله عليـه وسلم في حجة الوداع قبيل وفاته بأمـد غير طويل ليبين للناس ما خفي عليهم من هـذا الامر الهام وغيره ، وقال خطبته المعروفة بخطبـة الوداع على رؤوس الاشهاد بين جموع كثيرة ، وهو راكب على ناقته القصواء في بطن الوادي من ارض عُرَنه (ولعله اختار الوادي ليكون لصوته صدى يسمع الجميع) وهنـاك نادى في الناس وما يزال على نافته بصوت جهوري ، وكان يردده مع ذلك من بعده ربيعة بن امية بن خلف ، الرجل الصّيت ، وهو يقف بين عبارة واخرى قائلاً بعد ان حمد الله واثنى عليـه (ايها الناس اسمعوا قولي فأني لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هـذا بهذا الموقف ابداً (وكان ذلك كما قال) وجرى في خطبته الى ان عرض لقضية التفاخر بين الامم مانحن بصدده فقال (قال الله تعالى : يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) سورة الحجرات آية ١٤ : ثم قال ما خلاصته (انه ليس لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على اسود فضل الا بالتقوى) والعجمي في اصطلاح العرب ، غير العربي اياً كانت لغته .

وامتدح الرسول عليـه الصلاة والسلام مرة الفرس بالتعمق في العلم وبـين لنا مدى دراساتهم الواسعة فقال (لو كان هذا العلم بالثريا لتناولته رجال من فارس) رواه البخاري وقال ايضاً (سلمان منا اهل البيت) وسلمان فارسي الحقه بأهل بيته لأسلامه وتقواه واخلاصه في دينه وعمله وقال الرسول ايضاً (المسلمون سواسية كأسنان المشط) يعني في الاحكام وفي التقاضي سواء لايقام في تعاليم الاسلام لشريف وزن ولا يبخس لوضيع عندهم حق الا بالعدل . وان رجالا مـن بني فارس الحقوا بأعلى مراتب الرفعة والسمو في الاسلام لتقواهم وعلمهم . الا ترى ان الامام ابا حنيفة النعمان بن ثابت احد اصحاب المذاهب الاربعة المعتمدة اقوالهم في

الاسلام ، والمنتشر مذهبه في اكثر العالم الاسلامي ، هو من اصل فارسي ، والامام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه البخاري صاحب اعظم كتاب في الحديث هو ايضاً من اصل فارسي فأن بردزبه كان مجوسياً ومجوسية الجد لم تنقص قدر الحفيد ، فكيف ترقى هـذان الفارسيان في نسبهما لأعظم المراكز الدينية في الاسلام ان كانا في اصلهما احط من درجة الجنس العربي ، وصهيب بن سنان الرومي ، كان مـن اجلاء اصحاب الرسول عليـه الصلاة والسلام ، اشترى نفسه بعد الهجرة بأيام قليلة من كفار قريش ارادوا منعه من مغادرة مكة فاعطاهم ما كان قد ادخره من مال فتركوه حراً ، فانزلت الآية الكريمة يتعبد بها المسلمون ابد الدهر (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤف بالعباد) سورة البقرة آية ٢٠٧ نعم كان بعض العرب ايام الدولة الاموية يأبون على الموالي ان يزوجوهم مـن العربيات ، تعصبا للعرق والنسب ، ولكن هذا من فعل العوام الذين لا يعتبر عملهم حجة على الاسلام ولا قياسـاً مطرداً ، فأن الاسلام محا بتعاليمه القويمـة العنصرية العربية وصهرها في بوتقة اسمها اخوة الاسلام ، وقضى قضاء تاماً على افضليـة الدم في القوانين الاجتماعية ، والغى التمييز بين الامم الاسلامية اياً كانت قوميتهم ، لأن الاسلام يجب ما وراءه ويهدر ما قبله ويحفظ كرامة المؤمن بين المسلمين على السواء ، وينظر اليهم كاخوة يجب ان يتحابوا في دين الله قال الله تعالى (انما المؤمنون اخوة) سورة الحجرات آية ١٠ على هذا تضافرت تعاليم محمد عليه الصلاة والسلام وتقررت شريعتـه ، واذا رأينا شذوذاً في هـذا بين المسلمين فليس هو من دينهم ، بل تمقتـه شريعتهم ، انما يفضل المسلم اخاه المسلم بالتقوى ، والقرآن العظيم لم يقل ان اكرمكم عند الله عربيكم بل قال (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ان الاساتذة يعوزهم التوسع في دراسة ماهيـة الاسلام والتعمق في تاريخـه اكثر مما عرفناه في كتابهم (تاريخ العرب) لتأتي كتاباتهم عن الاسلام موزونة فقد تعرضوا لما لم يحيطوا بعلمه ، الم يشعروا بالتناقض فيما ذكروه ، انهم لم يحققوا فيه بل لم يشيروا الى ما تورطوا به من الاختلاف ، ولعمري ان قولهم الأول غير بعيد عـن الثاني بعداً يستوجب هـذا النسيان ، لقد سعوا في نقض ما تمّ من جهتهم ، فهل يكون سعيهم مردوداً عليهم .

١٤ ـ قال الاساتذة اصحاب تاريخ العرب ص ١٤١

وراجت منزلة مكة لعلو شأن الحرم بالرغم من انها بوادٍ غير ذي زرع رديء الهواء

اريد ان احدثكم ايها الاساتذة عن مناخ مكة فقد خبرته بنفسي ، هي في متسع من الارض تحيط بها الجبال ، ووراء هذه الجبال صحراء الحجاز ، وقد اقمت بها لما قصدتها للحج خمسة عشر يوماً ، والفصل يومئذ شتاء ، والهواء فيها شديد الجفاف ، حتى ان ربطة المشمش اليابس (قمر الدين) التي كانت معي في جملة زادي كنت اكسرها كسراً كما يكسر الرغيف اليابس ، على خلاف ما نعرف في بلاد لبنان وسورية ، والمعروف ان مكة تقل فيها الامراض الصدرية ، وبعد مبارحتي هذا البلد الطيب ، كان قد زاد وزني نحواً من اربع كيلوات ، وانا يومئذ في سن الواحد والعشرين ، وهي اعظم فرصة اكتسبت فيها صحة مدة حياتي ، ولم تعاودني العافية بعدها مثلها كل عمري ، وافدت يومئذ في نشاطي وقوتي اكثر من اي بقعة من بقاع الارض اقمت فيها ، ولما اردت التوجه الى عرفات لم ار حاجة للركوب مع ان المسافة تبلغ خمس ساعات ، وكان مركبي يمشي امامي فارغاً .

فمن حدثكم ايها الاساتذة ان هواء مكة رديء ان القائل قد كذب عليكم وعلى نفسه ، ومتى كان هواء الصحراء رديئاً .

روى زيني دحلان في السيرة النبوية ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هاجر الى المدينة واصحابه ، اصابهم منها بلاء وسقم وجاءتهم الحمى واستوخموا هواءها ، فمرض كثير منهم ، وحفظ الله نبيه ، وكان بلال الحبشي اذا اقلعت عنه الحمى يقول (اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة واميه بن خلف كما اخرجونا من ارضنا الى ارض الوباء) وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم المرضى ، فأشفق لما اصابهم من مرض ، فرفع رأسه الى السماء وقال (اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة او اشد ، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدّنا وصححها لنا وانقل حماها الى الجحفة وكان سكانها يومئذ يهوداً ، وهي قرية قريبة من رابع بين مكة والمدينة .

واوصى الرسول اصحابه بسكنى العالية فقال (عليكم بالعالية) وهي ضاحية

المدينة الى الجنوب منها ، فيها مسجد قباء ، حيث تقام اليوم فيها البنايات الحديثة للاثرياء ، وهواء هذه الجهة ايام الشتاء والربيع من اجود البقاع مناخاً وارغدها عيشاً واطيبها ماء ، لقد اقمت بهذا البلد الطيب ثلاثة اشهر ونصف الشهر ، فعرفت بركتها وخيرها وطيب هوائها .

١٥ — قال الاساتذة اصحاب تاريخ العرب ص ٢٢٦

وجعل عمر بن الخطاب لنظريته التشريعية اسساً اولها ان لا يسمح بالبقاء في الجزيرة العربية لغير الاسلام ديناً ، وعملاً بهذه القاعدة الاساسية اجلى يهود خيبر سنة ١٤ = ١٥ هـ ٦٣٥ = ٣٦ م فيمن اجلاهم بالرغم من عقود الامان السالفة ، فالتجأوا الى اريحا وسواها ، وكذلك اجلى نصارى نجران الى الشام والعراق .

« ونجران في جنوب الجزيرة العربية من بلاد اليمن »

اقول : لعل الاساتذة يتسلون بهذه الاقوال ليكتسبوا نشاطاً ويزدادوا قوة واستجماماً في هذه الرياضة التاريخية ، فما عليهم حرج ان كان هذا ما يريدون = ان المكتبات في بيروت والقاهرة لتزدحم بالكتب الموضوعة بترجمة حياة عمر بن الخطاب = فهلا مرّوا بشيء منها مرّ الكرام فدرسوا ما فيها ، ووقفوا على شيء من مزاياه العظيمة الفذة ، فأن باطلا عن عمر ما يكتبون .

لقد نسى هؤلاء الاساتذة ان عليهم قبل كل شيء ان يسدوا الهوة السحيقة التي تفصل بين عقليتهم الغربية وبين الاشخاص الذين تبعوا محمداً عليه الصلاة والسلام في العصر الاول للأسلام ، اخص منهم بالذكر عمر بن الخطاب ، وانهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا بالوهم في كل نقطة تعرضوا لبحثها ، هل يقف الاساتذة عند هذه الملاحظة ليعلموا ان حكمهم هذا لا ينفذ الى حقيقة .

لا اظن انهم اصابوا فيما زعموا ، ولعمري انهم مولعون بحب الطريف ويحاولون الأتيان بمعنى جديد غير مسبوق ، ولذلك جاؤا بصورة غير صحيحة ، فليسوا هم طلاب حقائق بل طلاب تجديد زائف .

ان قولهم هذا صريح بغمز عمر ، وطعن بعدله ووفائه ، وعمر الفاروق هو الذي اجمعت الامم على اختلاف نزعاتها في كل زمن على حسن سيرته وعدله وسياسته .

احسب انكم ايها الاساتذة لم تقفوا على تاريخ عمر ولم تمروا بقسط صالح من سيرته ، فجاء حكمكم عن غير معرفة ولا سابق تصور وتحقيق ، ولا فرع عن دراسة خالصة لوجه التاريخ ، انشدكم الله والحق هل تعتقدون ان عمر بن الخطاب ينقض العهود اذا اعطاها ، واذا قلتم نعم ، فهل تقولون ذلك عن قناعة واطمئنان مخلصين .

اليس عمر هو الذي امتنع عن الصلاة في كنيسة القيامة لما دعاه البطريرك صفرونيوس للصلاة فيها وصلى خارجها حرصاً منه على المواثيق والعهود لا يخفرها المسلمون الى الابد ، وقال للبطريرك « لا يغلبكم المسلمون عليها فيقولون صلى هنا عمر » فحفظ بهذا القول اعظم مركز من المراكز المقدسة لدى الامة المسيحية لا يفتات عليها احد من المسلمين ابداً ، فما باله ينقض تارة عهود خيبر واهل نجران ، كما زعمتم واخرى لا يحرص على الوفاء في حفظ الكنيسة فحسب بل يريد هذا الوفاء الى قيام الساعة ، ايها المؤرخون انكم تفترون على التاريخ .

الم تذكروا ان عمر وضع ابنه ابا شحمة تحت الضرب في حدّ من حدود الله حتى اتى على فلذة كبده ، فعل هذا استسلاماً ووفاء لدينه ، ورغبة في انكار الذات لعقيدته ، فهل سمع احد بمثل هذا في التاريخ منذ ولد عمر الى الآن . لقد ضرب ابن الخطاب للعصور مثلاً اعلى في الامانة وحسن الوفاء ، فأتونا بمثله في رجال تاريخكم ان كنتم صادقين :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

الم يبلغكم فعله مع الرجل الذمي الضعيف رآه يتوكأ على عصاه ، فسأله عن حاله فشكى اليه الفقر والحاجة فقال « ما انصفناك اخذنا مالك قوياً واهملناك فقيراً ضعيفاً » ثم امر له بما يقوم بأوده في كل شهر

هذا عمر وهذه بعض مزاياه ، ولعمري ما كنت اظن ان مخلوقاً يستلهم الحقيقة مخلصاً بأقواله وتأريخه يقول ما بهتم به عمر فهل انتم مطمئنون لما ذكرتم ، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم

اليس عمر قد جلب ابن عمرو بن العاص (وعمرو فاتح مصر) وابنه

المعتدي بالضرب على الرجل القبطي ، ناوله عصا ومكنه من ظهره وقال له « اضرب ابن الاكرمين وابسط يدك بالضرب » بحضور والده عمرو ، فـأين سياسة عمرو ساعتئذ واين دهائه في دفع الاهانة عن ولده ، مع ان العاص كان لا يرضى ان يلبس الحرير مزرراً بالذهب

اذا جاء موسى بالعصا فقـد بطل السحر والساحر

وكم في سيرة ابن الخطاب من حوادث تشرّف الاسلام وحق لهم ان يفخروا، وفي قصة جبلة بن الايهم معه عبرة وذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهـو شهيد ، اسلم جبلة بن الايهم مع قبيلته الغساسنة بعد سقوط الشام بأيدي المسلمين ، وذهب مع طائفـة من قومه بصحبة عمر بن الخطاب لأداء فريضة الحج وفيما كان جبلة يطوف حول البيت وطىء اعرابي من فزارة طرف ازاره فسقط وبدت عورة الامير ، فلطمه في ساعة غضبه لطمة آذته ، فذهب الاعرابي شاكياً الى عمر ، فاحضر جبلة وسأله فقص عليه الحادثة كما وقعت ، فحكم عليه عمر بلطمة يلطمه بها الاعرابي ، فقال جبلة « هو سوقة وانا امير » فقال له عمر « الاسلام سوّى بينك وبينـه » فاستمهل جبلة عمر الى الغـد فقال عمر « ان اذن الاعرابي امهلتك » فأمهله الاعرابي ، واتى جبلة قبيلته فأمرهم بالانصراف وانطلقوا لنحو الشام ، وتابع جبلة بعدها مع قومـه سيرهم الى القسطنطينيـة فلحقوا بقيصر مرتدين . ولاقى جبلة عند قيصر مـن صنوف الاكرام ما لا يحيط به الوصف ، واتفق ان ارسل عمر رسولاً لقيصر في بعض الشؤون ، ولمـا ادى رسالته ، اتى جبلة فرأى ما عليـه من البذخ والنعيم والترف ، فجلسا يتحادثان ، فسأله جبلة عـن عمر وحوادث المسلمين فقص عليـه طرفاً مـن اخبارهم ، فأخذ جبلة بالبكاء وجعل يتفجع بدموع غزيرة مظهراً الاسف والندم وانشد :

تنصرت الاشراف من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
يعنفني فيها لجـاج ونخـوة فبعت بها العين الصحيحـة بالعور
فيالـيت امي لم تلـدني وليتني رجعت الى القول الذي قال عمر
ويالـيت لي بالشام ادنى معيشـة اجالس قومي ذاهب السمع والبصر

ويا ليتني ارعى المخـــاض بقفرة وكنت اسيراً في ربيعة او مضر
ادين بما دانوا به مـن شريعـــة وقد يصبر العود(١) الكبير على الدبر(٢

ذكر الاساتذة المؤلفون لتاريخ العرب ص ٢٠٨ ما نصه بالحرف

ولما سلمت القدس جاءها عمر زائراً وانفذ صلح اهلها وكتب لهم به ، فاستقبله بطريرك اورشليم صفرونيوس الملقب بـ « حامي الكنيســة المعسول اللسان » وطاف به على انحاء البلدة واراه الاماكن المقدسة ، وكان لهيئة الخليفة البسيطة ولباســه الرث اثر عظيم في نفس صفرونيوس فالتفت الى احد مرافقيه وكلمه باليونانية قائلا « حقاً ان هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال ورآه قائماً في المقدس »

اقول ارأيتم الى هذا البطريرك المعسول اللسان كيف كان يتجه بقلبه ويذهب في تفكيره ، انه في ملامح وجهه غيره عما تنطوي عليــه سريرته ، فهو يظهر باتجاه مخالف ، ليس بين الجارحتين اي صلة ، ولعمري ما هـذا بقوانين الاخلاق مما يحمد عليه ، يستقبل بلسانه المعسول وسنه الضاحك عمر بن الخطاب يطوف به انحاء المدينة ليريه الاماكن المقدسة ومواضع الآثار ، فهـو ذو وجهين يأتي عمر بوجـه ويـأتي مرافقه بوجه آخر ، فبينما هو يضمر الضغينة والازدراء للمالك الجديد ، يجد الفرصة المناسبة ليقول لأحـد مرافقيه « حقاً ان هـذا رجس الخراب » والمسلمون يحمدون الله ان كان خليفتهم هذا في رثاثة ثيابه وبساطته المتناهية وقلبه الطيب قد رفع لهم رايات الاسلام عالية على بلاد الدولتين العظيمتين المالكتين زمام العالم يومئذ ، قضى على دولة الاكاسرة في عقر ديارها حتى لم تكن اكاسرة ، وسلب الروم خير ولاياتها العامرة ، حتى لم يعد لها في سورية وفلسطين ومصر وفينيقية حظ ولا نصيب ، فسلم بعدها القيصر وهو على جواده في سهول الرها ادار رأس الجواد لجهة الجنوب وقال (السلام عليك ياسورية سلاماً لا لقاء بعده) وهكذا كان مصيباً في تشاؤمه صادقاً في ظنـه ، فقد حقت كلمـة الفراق وستبقى الى ما لا يعلم الا الله ، اما البطريرك صفرونيوس فقـد اضاع رشده بين عاملين كانا يتنازعاه ، ظاهر غير الباطن وباطن

---

١) العود : الجمل الهرم (٢) الدبر : مرض يعتري الجمال

غير الظاهر .

ولما جانت صلاة العصر طلب صاحب الثياب الرثة الى البطريرك ان يهيء له مكاناً للصلاة فقال صل بالكنيسة فقال « لا اصلي فيغلبكم المسلمون عليها ، يقولون صلى هنا عمر » فانظر ياخي الى كلا الرجلين كيف يذهب كل منهما في تفكيره ذاك يقول عن عمر «انه رجس الخراب» وعمر صاحب الثياب الرثة ينزع الى التفكير بحفظ الكنيسة المقدسة الى الابد « وكل اناء بالذي فيه ينضح » فمرحى في رثاثة الثياب ان كان هذا خير عمر ولا بورك في فاخر الثياب ان نزع عمر الى نقض العهود والمواثيق في سلب الكنيسة المقدسة من ايدي اصحابها ، ولو صح ما قاله البطريرك عن عمر للبّى لمّا دعاه للصلاة فيها مسرعاً ولكان لها اليوم وضع آخر غير ما هي عليه الآن .

وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا في التقشف والتقتير على نفسه في اللباس والمأكل انما كان مشرباً خاصاً يحمله عليه شدة الورع والزهد ، فقد كان رضى الله عنه يتصور وهو امير المؤمنين ، ان في رعيته اناساً كثيرين يعيشون في شظف من العيش ، فكان يأبى ان يكون في الامة من يجوع وهو يشبع ، ومن يأتزر بالأدم وهو يلبس الخز ، والا فأن عمر لم يكن يجهل ان الله تعالى قد احل الطيبات من الرزق ، وانه لو حمل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجاز له

وذكر غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب عن هذه الحادثة ما نصه :

« ويثبت لنا سلوك امير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الامم المغلوبة ، فلم يُرِد عمر ان يُدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من اصحابه ، وقد طلب الى البطريرك صفرونيوس ان يرافقه في زيارته لجميع الاماكن المقدسة ، وقد اعطى الاهالي الامان وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم واموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم » ثم عطف بعدها هذا المؤلف على ذكر ما وقع يومئذ بمصر من عدالة وحرية لهذه الامة المغلوبة حتى رأينا وقد دخلت الامة المصرية في دين الله افواجاً فقال « ولم يكن عمرو بن العاص اقل كرماً من ذلك فقد منح المصريين حرية دينية تامة

وعد لأمطلقاً ومساواة كاملة واحتراماً كبيراً لأموالهم وتبديلاً للضرائب الجائرة التي فرضها قياصرة الروم عليهم ، بجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكا عن كل رأس ، وقد رضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية عن طيب خاطر ، وبالغ العرب في الوقوف عند حد تلك الشروط والتقيد بها حتى احبهم المصريون الذين ذاقوا الامرين من ظلم قياصرة النصارى واقبلوا على اعتناق دين العرب . انتهى

وانت ترى اليوم كيف فشا الاسلام بين الامة المصرية حتى شمل الجميع الا قليلاً منهم ، وكان ذلك اثراً من آثار العدالة الاسلامية التي سار عليها الفاتحون الاولون .

ولما كان عمر رضي الله عنه في بيت المقدس رأى ان يقمع الفتن القائمة بين الطوائف المسيحية في اختلافهم على تعيين صاحب الحق في استلام مفاتيح الكنيسة المقدسة ، لقد سفكت دماء كثيرة بين هذه الطوائف قبل ان يصدر عمر حكمه فيها ، وكان من غير الممكن ان يهدأ الخلاف على اهون سبيل ، فكلهم له حقوق في استلامها ، وفي عبقرية الحاكم الجديد كفاية للقضاء على هذا الخلاف في الحال والى الابد ، فكيف يكون الحكم ياترى ، ان الحكمة البالغة تقضي ان تكون هذه الامانة بيد محايدة امينة لا تمت الى احد الفريقين بصلة ويريد عمر ان تتداول هذه الايدي الامانة بطريق التوارث الى ما شاء الله ، فلتكن اذن بيد اسلامية ، واستلمت العائلة الاسلامية الموظفة المفاتيح منذ ذلك الحين والى الآن ، وتوفر سفك الدماء وقمعت الفتن ، وفي التاريخ ان المفاتيح استرجعتها بعض الطوائف المسيحية فجرت الدماء غزيرة ، ولم تخمد حتى رجعوا الى حكم عمر رضى الله عنه .

ولنأت لك بما احدثه الصليبيون يوم دخولهم القدس بعد بضعة قرون لتقابل بين عمل المسلمين حين استيلائهم عليها ايام عمر بن الخطاب وبين عمل شعوب اوروبا يومئذ

فليت شعري كيف يأتي حكمك بما ابسطه من الحق الماثل الآن امامك دون مماحكة او تحيز فقد ذكر غوستاف لوبون عن دخول الصليبيين للقدس ما نصه قال :

ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على انهم كانوا اشد من الوحوش حماقة ، فكانوا لا يفرقون بين الحلفاء والاعداء والمحاربين والنساء والشيوخ والاطفال وكانوا يقتلون وينهبون من يصادفونه منهم ويخبطون في ذلك خبط عشواء .

وقد كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس في ١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ م غير ما فعله الخليفة الجواد الكريم عمر بن الخطاب عندما دخلها منذ بضعة قرون قال ريموند داجيل الذي كان كاهن لوبوي :

« لقد حدث ما هو عجيب عندما استولى قومنا الصليبيون على اسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعض العرب وبقرت بطون بعضهم وقذف بعضهم من اعلى الاسوار وحرق بعضهم في النار وكان لا يرى في شوارع القدس ومياديها سوى اكداس من رؤوس العرب وايديهم وارجلهم وكان المرء لا يمر الا على جثث قتلى العرب وذلك كله بعض ما اصاب العرب .

وقد روى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في الحرم القدسي فقال :

« لقد افرط قومنا الصليبيون في سفك دماء المسلمين في معبد سليمان فكانت جثث المسلمين وايديهم واذرعهم المبتورة تعوم فيها وكان قومنا الصليبيون لا يطيقون رائحة بخارها .

ولم يكتف قومنا الصليبيون الاتقياء بذلك فعقدوا مؤتمراً اجمعوا فيه على ابادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذي كان عددهم ستين الفاً فأفنوهم على بكرة ابيهم في ثمانية ايام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً .

وقد اراد الصليبيون ان يستريحوا من عناء تذبيح اهالي القدس قاطبة ، فانهمكوا في كل ما يستقذره الانسان من ضروب السكر والعربدة وقد استشاط مؤرخو النصارى مع اتصافهم بروح الاغضاء والتساهل غيظاً على سلوك حماة النصرانية الشائن فنعتهم برنارد الحازن بالمجانين ، وشبههم بودان الذي كان رئيس اساقفة دُول ، بالافراس التي تتمرغ في الاقذار . فمن كان وجس الخراب ياترى؟.

واني لأرجو ان تكون قد وقفت على درس من دروس العدالة الاسلامية في التاريخ عندما تقابل الفرق بين الفتوحين وطبيعة كل من الشعبين ، وما اشد حاجة العالم الاسلامي اليوم الى وجود خليفة من نوع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهاته لنا رث الثياب ، ولو كان لدينا مثل عمر لما قامت اليوم لاسرائيل دولة في فلسطين، ولعمري لم يكن فاخر الثياب ولا رثاثتها يوماً ما دليلاً على شيء ، الم يكن المهاتماغاندي زعيم الهنود يعيش في اسمال بالية ، وهو مخرج دولة بريطانية العظمى من بلاده العظيمة دون ان يسفك دماً ، وكم في بلاده من اغنياء يتقلبون في فاخر الثياب فماذا صنعوا لبلادهم الحق ان الله ينظر الى ما في القلوب ولا تغره بهرجة الثياب ، وفي الحديث الشريف ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى اعمالكم وقلوبكم .

لمحة من تاريخ اليهود في بلاد الحجاز

قال ابن خلدون ان بني اسرائيل بعثوا بعوثاً الى الحجاز وكان هناك يومئذ امة من العمالقة يسمون جاسم وملكهم الارم بن الارقم ، اوصى بني اسرائيل نبيهم ان لا يستبقوا من اعدائهم من بلغ الحلم ، فلما ظهروا على العمالقة وهزموهم قتلوا الارقم واستبقوا ولده ، ضنوا به عن القتل لوضاءته وجماله ، فخالفوا بذلك امر نبيهم ، ولما رجعوا من بعد الفتح وبخهم اخوانهم ومنعوهم دخول فلسطين وارجعوهم الى الحجاز ليسكنوا ما ملكوه من ارضها فنزلوها ، وكان من نسلهم يهود الحجاز خيبر وبنو قريظة وبنو النضير وغيرهم . قيل كان ذلك سنة ٧٠٠ ق م

وجاور اليهود بالمدينة بني قيلة وهما قبيلتان اوس وخزرج ، وكان اليهود وهم اهل كتاب واصحاب عقيدة توحيد ، يحسبون انفسهم شعب الله المختار ، يعيبون على جيرانهم عبادة الاوثان وينذرونهم بعثة نبي يقضي عليهم ويشايع اليهود

وينصرهم ، فأذا وقعت بينهم الحروب واشتدت الملاحم تستنصر اليهود على الوثنيين بهذا الرسول يقولون « قد اظلنا الزمان الذي يخرج فيه النبي المنتظر الذي نجد نعته في التوراة وسنؤمن به ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم » ويبتهلون بالدعاء عليهم « اللهم ابعث النبي الذي نجد نعته في التوراة يعذبهم ويقتلهم كما قتلت عادا وارم »

ولم يكن الاوس والخزرج عن هذا في غفلة ، بل يتلقونه بكل انتباه وتيقظ ، حريصين على الافادة من هذا التهديد عليهم يسبقون اليهود للايمان بهذا النبي المنتظر الذي يهددونهم به ، ويودون لو يبعث من قريب فيؤمنون به .

وبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو اهل مكة للاسلام وينهاهم عن الاوثان والاصنام ، فخرج في بعض السنين الى خارج مكة حسب عادته ، وكان ذلك في رجب سنة عشرة للبعثة ليعرض نفسه على القبائل من العرب الذين يجتمعون للحج كما كان يصنع في كل سنة ، فبينما هو عند عقبة الجمرة على يسار القاصد لمنى اذ لقي ثمانية انفار من الخزرج اهل المدينة ، وهم ابو امامة اسعد بن زرارة وابن عفراء وعوف بن الحرث ورافع بن مالك وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله وعبادة بن الصامت وابو الهيثم بن التيّهان ، فقال لهم الرسول من انتم قالوا « نفر من الخزرج » قال الا تجلسون اكلمكم قالوا « من انت » فانتسب لهم واخبرهم خبره واخذهم الى موضع بعيد عن الناس خوفاً من ان يراهم احد فينقل خبرهم الى قريش ، نزل بهم تحت عقبة الجمرة مكان مسجد البيعة اليوم ، ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن ، واحسبك تقدر النغمة الاخّاذة التي اذا تلا بها محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب الذي انزل معه كيف يأخذ بمجامع القلوب واتجاه التفكير فتطمئن اليه وتقبل عليه ، الا من طمس الله عين بصيرته ، فقبل الخزرجيون دعوته وايقنوا بها واطمأنوا الى ما سمعوا ، ورأوا امارات الصدق بادية عليه ، وتذكروا الآن الصفات التي كانوا يسمعونها قبلُ من اليهود ، فوجدوها متحققة فيه منطبقة عليه ، فقال بعضهم لبعض « ياقوم تعلمون والله انه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقوكم للأيمان به » فأجابوه الى ما دعاهم وصدقوا ما عرض عليهم من الاسلام واسلموا جميعاً ، فلما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة واجتمع عليه اهلها مذعنين لدينه مصدقين

برسالته ، وعرفته اليهود بصفاته كفروا به ولم يؤمنوا بنبوته بغياً من عند انفسهم ونكراناً للحق الذي عرفوا ، فتعرض لهم من اصحاب الرسول معاذ بن جبل وبشر بن البَرّاء وقالا لهم « يامعشر يهود اتقوا الله واسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن اهل كفر وشرك وتخبرون انه مبعوث وتصفونه لنا » فأجابهما سلام بن مشكم من احبار بني النضير « ما جاء بشيء نعرفه ما هو الذي كنا نذكره لكم فأنزل الله تعالى في ذلك « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » سورة البقرة آية ٨٩ — فالكتاب الذي جاءهم من عند الله هو القرآن العظيم مصدق لما معهم اي التوراة وكانوا من قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة حين يلتحم بينهم القتال يستفتحون (اي يستنصرون) بالرسول على الذين كفروا وهم اهل المدينة قبل ان يسلموا فلما جاء اليهود ما عرفوا من صدق نبوة محمد واستيقنتها انفسهم كفروا بها فلعنة الله على الكافرين ، واحسب ان اليهود وقد مضى على تلك البشارة حتى الأن ما يقرب من ١٤٠٠ سنة لا يزالون الى اليوم في انتظار بعثة نبي يهودي يبسط سيطرته على العالم فلينتظروا انا معهم من المنتظرين . وكان هذا السبب الذي سهل على الوثنيين من اهل المدينة ان يتركوا اوثانهم ليتخذوا الاسلام ديناً ويرتضوا بالله ربا لا شريك معه

وخافت اليهود ان تمتد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم وان تفشوا في عامتهم ، على حين تقتضيهم تعاليمهم ان لا يعترفوا بنبي من غير سلالة اسرائيل (يعقوب) لكن حبراً عالماً من كبار احبارهم وعلمائهم ، هو عبد الله بن سلام ، لم يلبث حين اتصل بالنبي عليه الصلاة والسلام ، ورأى امارات الصدق بادية عليه ، وعرف الحق الذي انزل معه ، ان اسلم وامر اهل بيته فأسلموا معه ، وخشي عبد الله ان يقول اليهود فيه اذا علموا بأسلامه غير ما اعتادوا ان يقولوا من مدح ، فقال للرسول « ان اليهود قوم بهت وطلب اليه ان يسألهم عنه . ما شأنه ؟ قبل ان يعرف احد منهم اسلامه ، واستتر ، قالت اليهود هو سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ،

فلما خرج عبد الله اليهم وتبينوا صنيعه ودعاهم الى الاسلام ، خافوا عاقبة امره ، فوقعوا فيه وقالوا « هو جاهلنا وابن جاهلنا » واذا عوا عنه قالة السوء في احيـــاء المدينة كلها .

ان الاساتذة اصحاب تاريخ العرب ذكروا حادثة اجلاء خيبر واهل نجران ، وقد طمسوا الحقائق المبرورة التي رافقتها ، وعروها عـن متممات للحديث هي في صميمه ، فجاء كلامهم ملفقاً لا يماشي الواقع اتوا بهيكل عظمي واسموه انسانا وما هو بانسان ، ليتهم درسوا تاريخ عمر حتى اذا قالوا انصفوا ان في نفوسهم نزعـة الى حقيقـة ، ولو فعلوا لكان خيراً لوجه الحقيقة ولوجه التاريخ

وها انا محدثكم عن اجلاء اهل خيبر ونجران كما اتفق وقوعـــه ليرى القارىء المنصف كيف تمّ هذا الاجلاء « بالرغم من عقود الامـــان السالفـــة » التي زعمها الاساتذة ، ويقابل بعدها المنصفون بين اعمـــال اعظم دول الارض مدنيّـــة من المعاصرين وبين عمـل عمر بن الخطـاب ذاك القرشي المخرج من المدرسة المحمدية

فتح النبي عليه الصلاة والسلام لخيبر

خيبر واحـة تبعد عن المدينـــة ثلاثة مراحل ولأهلها بضعة حصون منها حصن الوطيح والسُلالم وناعم ونَطاة والقموص والشّق والكتيبة وفدك وحصن الصعب بن معاذ

غزى النبيُّ عليـــه الصلاة والسلام بلادهم واستولى على حصونهم الواحـد بعد الآخر ، واليهود في حروبهم هذه كانوا لا يسلّمون في شبر ارض ولا يسلّمون حصناً الا بعد ان يهلكوا انفسهم بالدفاع ، وبعد ان لا يبقى لهم على صد هجوم المسلمين قوة ، ولما استتب امر الفتح ، اقام الرسول عليه الصلاة والسلام من قبله معاذ بن جبل واوصاه ان لا يفتن اليهود عن دينهم

وكان من احسان النبي صلى الله عليه وسلم ان ردّ اليهم ما غنمه المسلمون من صحف التوراة ، طلبوا اليه ردّها فأمر بتسليمها لهم ولم يصنع صنيع نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق م حينما اكتسح فلسطين وخرب الهيكل وساقهم اسرى مستعبدين لمدة سبعين سنة واحرق التوراة وقتل كل من يحفظها ، ولم يترك لهم نسخة واحدة يرجعون اليها ، حتى اعاد لهم كتابتها العزير ، ولم يفعل فعل الرومان عندما غزاهم القائد الروماني تيطس سنة ٧٠ ب م فأحرق توراتهم ومعبدهم حتى اتصل الحريق بقدس الاقداس فأتى عليه ، ولا هو صنع صنيع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حين احرقوا صحف التوراة

وجاء في كتاب العهد الذي تمّ بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم اربعة شروط ١ — ان تحقن دماؤهم ، ٢ — للرسول الحق ان يجليهم متى شاء ، ٣ — للمسلمين ملك ارضهم بحكم الفتح ، ٤ — لليهود نصف ثمارها بمقابل عملهم فيها . وكان الخارص الذي يرسله النبي لقسمة الثمار يخيرهم بأحد القسمين وجاءهم عبد الله بن سهم فقتلوه فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، فكتب اليهم الرسول ، ان يعطوا ديته او يأذنوا بحرب . فكتبوا اليه يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً فوداه رسول الله من عنده واقرهم على ما سبق من معاملتهم ، وبقوا كذلك الى اوائل ايام عمر بن الخطاب

وذكر ابن الاثير في تاريخه لحوادث سنة عشرين قال وفي هذه السنة ، قتل المظهّر بن رافع الانصاري ، قدم من الشام ومعه علوج من الروم فلما كان بخيبر مرّ بهم قوم من اليهود فقتلوهم انتهى .

وخرج اليهم عبد الله بن عمر بن الخطاب والزبير بن العوّام والمقداد بن الاسود يتعاهدون ثمارهم وتفرقوا ، فعدى على عبد الله معتدٍ تحت جنح الليل بضربة خلعت يده من المرفق ، فلما اصبح جاءه صاحباه فجبرا الخلع ثم حملاه الى المدينة فقال عمر هذا عمل يهود ، وتحدثت اهل المدينة بذلك وبما اوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبضه الله فيه بأن « لايبقى في جزيرة العرب دينان » فبلغ ذلك عمر ، فلم يزل يبحث عن صحة هذا القول حتى ثبت عنده ، ثم جمع الناس فقام

فيهم خطيباً فقال « ايها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عاهد يهود خيبر على ان نخرجهم اذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يده كما بلغكم مع عدوتهم على الانصارى قبله ، قد لا نشك انهم اصحابه ، ليس لنا هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال (نخل) بخيبر فليلحق به فأنى مخرج يهود » و كتب اليهم فقال « ان الله قد اذن في اجلائكم ، قد بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتني به انفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله فليتجهز للجلاء » ثم تهيء للخروج فخرج في جمع من المهاجرين والانصار فأجلاهم عن تاريخ الخميس جزء ٢ ص ٦٢ وحياة محمد لهيكل ص ٣٧٥

هذا هو حادث اجلاء اهل خيبر الذي اشار اليه الاساتذة بانه جرى بالرغم من عقود الامان السالفة ، على حين انهم هم الذين نقضوا العهود واقترفوا جرائم القتل ، وحفظت حرمتهم حين الاجلاء فلم يحصل عليهم اعتداء من المسلمين قط ، ولعلك لا تجد في التاريخ رحمة وعدل للطوائف المستأمنة من اهل الذمة ايام الحروب كهذا ، على ان اهل خيبر قد ذهبوا للأستيطان بأريحا من ارض فلسطين ، اجلوا من بلاد اسلامية لبلاد اسلامية اخرى واعطوا خيراً مما اخذ منهم ، فهل سمع احد بمثل هذه العدالة من الغالبين منذ اجلاهم عمر حتى يومنا هذا ، لقد صدق غوستاف لوبون في قوله « لم يعرف التاريخ فاتحاً ارحم من العرب ، ان هذه الكلمة الصريحة التي ارسلها هذا المستشرق لأسماع التاريخ ليرن صداها في آذان المستقبل ، انها مليئة بالحقيقة لحمتها الانصاف وسداها الواقع ، فهذا ما اتفق وقوعه لأهل خيبر

وأراني مهما احسنت الظن بالاساتذة المؤلفين ، فلا استطيع ان اقاوم الفكرة التي تخالج ضميري من سوء الظن لتجاوزهم على التاريخ الاسلامي وتصويرهم له معكوساً افتراء عليه ، ولا يداخلني شك قط بان هذه دسيسة صهيونية يريدون بها خدمة اسرائيل من وراء نقاب شفاف ، ان لم تكن للعصر الحاضر فللمستقبل القريب او البعيد ، واذا علمنا ان تاريخ العرب المطول في شهرة مؤلفيه الواسعة تتداوله الايدي الاميركية بلغتهم الانكليزية ، عرفنا الى اي مدى قد خدموا بهذا العمل

السياسة الصهيونية ، واظن القاريء الكريم لم ينس بعد ، ان خمسين الف نسخة من هذا التاريخ يطالعها الجيش الاميركي ليتشبع بالروح التي اودعها هؤلاء المؤلفون كتابهم ، الحق انهم يفتاتون على امير المؤمنين وعلى تاريخ الاسلام ، وهل هذه الخدمة يخدمون بها اسرائيل جاءت بلا مقابل ولا اجر ؟

كيف تمت معاهدة نجران

لقد جاءت بعد غزوة الرسول صلى الله عليه وسلم لتبوك وفود كثيرة من اهل شبه الجزيرة سارعوا الى الدخول في الاسلام وليتركوا عبادة الاوثان ، وتطهرت بلاد العرب جميعاً من الاصنام وعبادتها اتوا طواعية واختياراً من غير ان تزهق نفس او يهرق دم ، وكان امر هذه الوفود متشابه في الانضواء تحت راية الاسلام ، ووجهتهم واحدة وهو التشرف بدين الحق وعبادة الله وحده

ولقد افرد ابن سعد في طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين صحيفة كبيرة ، وكان في جملة الوفود ، وفد نجران النصارى ، اجتمعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجادلونه في امر المسيح ، وكان موقف النبي والاسلام من النصارى واحداً في جميع ادواره ، لا يدع محلاً للريب البتة ، منذ بدأ الرسالة المحمدية الى ختامها ، فالمسيح عليه السلام من روح الله وكلمته قال له كن فكان ، احياه الله فجعله روحاً ، وسمّى الله القرآن روحاً ، والملك جبريل روح ، واخبر عن الانسان الاول انه نفخ فيه من روحه فكان آدم ، وفي القرآن العظيم ان المسيح بن مريم عبد الله اتاه الكتاب وجعله نبياً ، وجعله مباركا اينما كان واوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حياً ، ذلك ما نزل به القرآن العظيم منذ بدأ الرسالة المحمدية الى ختامها ، والله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد ، وفي القرآن العظيم « ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا

وصدقت بكلمات ربها و كتبه وكانت من القانتين » آخر سورة التحريم . يقول ارسلنا اليها الروح الامين جبريل فنفخ فيها فحملت بعيسى عليه السلام

هذه عقيدة المسلمين بالسيد المسيح منذ اللحظة الاولى الى ان يرث الله الارض ومن عليها

وشرع وفد نجران النصارى يجادلون محمداً صلى الله عليه وسلم في الله ، وفي بنوة عيسى ويسألونه ، ان عيسى امه مريم فمن ابوه ، فأنزل الله عليه (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم) سورة آل عمران آية ٦٠ و ٦١ و ٦٢

قال البيضاوي في تفسيره « روي انهم لما دعوا الى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما خلا بعضهم الى بعض قالوا للعاقب وكان ذا رأي . ما ترى . فقال والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل في امر صاحبكم (المسيح) والله ما باهل قوم نبياً الا هلكوا ، فأن ابيتم الا الف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا رسول الله وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول « اذا انا دعوت فأمنوا » فقال اسقفهم « يا معشر النصارى اني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى ان يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا

ووادع بعدها الرهبان النجرانيون رسول الله وبذلوا له الجزية فقال الرسول « والله لو باهلوا الخسف باهل نجران »

ولقد تساءل الامام محمد الابوصيري في قصيدته البائية عن نكول رهبان نجران المباهلة مع الرسول العظيم فقال

عجباً لهم عرفوا النبي واعرضوا ... عما يقول من الصواب واضربوا

ما بالهم ما باهلوه ولم ابت ... احبار نجران الذين ترهبوا

ولما ارادوا الرجوع طلبوا اليه ، ان يرسل معهم رجلاً اميناً فأرسل معهم ابا

عبيدة بن الجراح وقال « هذا امين هذه الامة » وانت تعلم ان المباهلة امر معنوي يرفع الخصمان امرهما الى الله تعالى مخلصين بدعائهم والتجائهم اليه ، يلعنون الظالم منهما ويستعجلون هلاكه ،فكيف ركنت الرهبان النجرانيون راضين بدفع الجزية، وهو امر يستلزم خسارة المال وتغريم المادة على طول السنين ، وهذا مما تشح به النفوس عادة ولا تذعن له الامم الا بصعوبات كلية ، لقد رضوا بأعطائها صاغرين دون ان يقدموا على الامر المعنوي الذي دعوا اليه ، وعساك ان تعتقد معي والتاريخ هذه حقيقته ، ان الرهبان النجرانيين كانوا موقنين ان عاقبة امرهم الى خسر عظيم وعذاب شديد اليم ، لو باهلوا ، لقد علموا صدق الرسول وعرفوا دينه الحق

« اجلاء اهل نجران »

اما اجلاء اهل نجران الذي اشار اليه مؤلفوا تاريخ العرب ، فلا ريب ان وضع المسلمين الحربي يومئذ اقتضى هذا الاجلاء وكان ذلك بطلب منهم ، على ان عمر رضي الله عنه خاف ان يكونوا عقبة كاداء في طريق غدو الجيوش الاسلامية ورواحهم وحسكة مشجية في حلوقهم ، وهو يومئذ يبني امة ويؤسس مملكة ، فكأنه نظر الى المستقبل بعيني عبقري فذّ عندما وضع خططه الحربية ليأخذ لأمته الامان ، وجعل ذلك ضمن دائرة العدل بل هو المحسن في عدله ، وهل اكثر من ان يشتري القائد العقار والمتاع ممن اجلاه ويعوضه من الارض خيراً مما اخذ منه ، وليس اليوم من الامم المتمدنة المعاصرة من يمثل عمر في عدله ورحمته مهما كان شوط تلك الامة في ميدان الاخلاق بعيداً والفضيلة متمكنة في نفوسها

واخذت الامة الاسلامية فيما بعد عمر تعد عمر مثلاً اعلى في صحة النظر وعدالة الاحكام فيقولون هذه « سنة عمرية » اي منتهى ما تتصل به العقول من العدالة

والرفق بالرعية على حد قول الشاعر

اذا المكارم في آفاقنا ذكرت فأنما بك فينا يضرب المثل

وورد بتاريخ ابن الاثير ما معناه : « انه جاء بمعاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران خمسة شروط وكانوا يحوكون الحلل

١ – تسلم اهل نجران للمسلمين بمقابل الجزية كل سنة الفي حلة ، ثمن كل حلة اربعون درهماً

٢ – على النجرانيين ان يضيفوا رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣ – للنجرانيين ذمة الله وذمة رسوله وعهده ان لا يفتنوا عن دينهم

٤ – لا تؤخذ منهم الاعشار

٥ – لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به

فلما استخلف ابو بكر ابقاهم على ما سبق من معاملتهم ولما استخلف عمر كانوا قد زادوا وكثروا فبلغوا اربعين الفاً فنشب بينهم التحاسد والتباغض وقامت العداوات والمشاحنات ، فأتوا عمر وقالوا « اجلنا » وكان عمر قد خافهم على المسلمين يمرون ببلدهم ، فاغتنمها فرصة فأجلاهم واشترى منهم عقارهم واموالهم ، فخرج بعضهم الى الشام وبعضهم الى نجرانية الكوفة انتهى

ولست اريد ان اتوسع لك في الحوادث التاريخية ، واعدد المآسي الفاجعة والضربات الاليمة التي تحملها المسلمون لما تهاونوا في اخذ مثل هذه الاحتياطات الرشيدة فجنوا نتائج اخطائهم حتى عادت عليهم بالهلاك والتدمير وعندي العشرات من امثال هذه الحوادث ، لا اريد ان اصدعك بذكرها

ان مثل هذه الخطط الحربية ، خطط الاجلاء لا تتورع عنها اعظم الامم مدنية وارفعها رقياً وعمرانا بعصرنا الحاضر ، بل في كل عصر اذا رأت في ذلك مصلحة لها ، وهي اليوم ممكنة الوقوع اكثر مما كانت في العصور القديمة ، هاتِ لنا اليوم دولة من دول الارض مهما استعلت في اوج المدنية ، وكان شوطها بعيداً في ميدان الاخلاق والرحمة بالانسانية لا تفعل مثل هذا بل اكثر منه

نقل عمر ابو النصر في مجلته « العرب » جزء ٩ ص ٦ قال « كان الفاروق عمر

رضي الله عنه قد خشي انتقاض النصارى في نجران على الاسلام ، وهو في حرب الفرس والروم ، فأجلاهم عن جزيرة العرب ، ثم عوضهم واوسع لهم من الارض في الشام والعراق واعطاهم خيراً مما تركوا

وقال ايضاً جزء ٩ ص ٥

حدث عبد الرحمن بن ابي بكر ،انه رأى عشية طعن عمر بن الخطاب الهرمزان الفارسي وجفينة النجراني وابا لؤلؤة فيروز المجوسي قاتل عمر ، وهم يتناجون فلما رأوه اضطربوا وسقط من احدهم خنجر له شعبتان هو نفس الخنجر الذي طعن به ابو لؤلؤة عمر رضي الله عنه . فبماذا كان يتناجى هؤلاء الخونة في غلس الليل ، هذا فارسي اعجمي وهذا مستأمن نجراني وهذا مملوك مجوسي ، ام ما الذي جمع هؤلاء خفية ، اترى ذلك على غير تدبير المؤامرة ، ان حكمة عمر ومدى عبقريته تتجلى لنا في هذا الاجلاء ، اذا علمنا ان جفينة هذا نجراني اتى به سعد بن ابي وقاص ليعلم الناس الكتابة في المدينة ، فاشترك اشتراكا فعليا في هذه المؤامرة الدنيئة وساعد على تنفيذها ، كان وحيداً عن بني قومه في المدينة وهذه فعلته ، فما بالك في اهل نجران اذا خلا لهم الجو ووجدوا فرصة لقطع خط الرجعة على جيوش المسلمين وعرقلة مساعيهم والقعود لهم بكل مرصد في غدوهم ورواحهم ، وهناك شخص آخر ليس من شك انه كانت له يد في هذه المؤامرة لأن مقتل عمر رضي الله عنه لم يكن الا مؤامرة اعجمية مدبرة على رجل لو امتد اجله في الحياة لاكتسح الاسلام في عهده اكثر العالم القديم ، وهذه خلافته لاتزيد عن عشر سنوات الا بضعة اشهر وسع بها البلاد الاسلامية الى حدود بعيدة ورفع لهم مئات الرايات على مئات البلاد فماذا كان يتم للاسلام من الظهور لو عاش في الامارة اكثر من هذا القدر من الاعوام

« نبوءات كعب الاحبار »

جاء كعب الاحبار بن ماتع الحميري اليمنى رابع المتآمرين الى عمر قبل الجريمة بثلاثة ايام وقال له « ياامير المؤمنين اعهد فأنت ميت بعد ثلاث » فقال عمر وما يدريك قال « اجده في كتاب الله التوراة فقال عمر « الله » انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة » قال كعب « لا ولكن اجد صفتك وانه قد فنى اجلك » وعمر لايحُس الماً ولايجد وجعا ، فلما كان الغد عاد كعب على عمر فقال ياامير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان ؛ ثم جاء في غد الغد وقال ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك الى صبيحتها : و كعب رجل يهودي رأى الاسلام يعلو ويفشو امره لايقف في سبيل انتشاره دين ولاقوة ، فدرك وهو الداهية الذكي ان الاسلام واصل لغاياته مدرك لمقاصده ، وان هذه الروح الكبيرة وهذا الحماس العظيم ، وهذه التضحية البالغة التي ينعم بها بنوه ستتغلب على الامم حتى اقاصى البلاد ، وادرك بثاقب فكره ، ان الاسلام سيقتحم اقطارا واسعة من الارض ، فلما اطمأن الى ذلك اسلم وهو على مثل اليقين من ان اسلامه سيكسبه عزاً لم يكن له ان يناله بين اليهود من بني قومه

وفي الواقع انه لايشك عاقل بأن حكاية اخباره لعمر الفاروق بمصرعه على هذا الوجه المروى تدل على ان كعبا كان على علم بما دبره ابو لؤلؤة من اغتيال امير المؤمنين ، وان خطة الاغتيال كانت معلومة لديه معروفة عنده ، وانما اراد بأخبار عمر على هذا الوجه ان تزيد منزلته عند المسلمين وينال حظوة عندهم ، وتكون اساطيره اكثر قبولا وامضى قولا

كيف كان الاغتيال

دخل امير المؤمنين عمر رضي الله عنه في صبيحة يوم الاربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة الى المسجد للصلاة بالناس على عادته ، والناس يفسحون له ويحيونه حتى قارب الصدر واراد الاتجاه الى القبلة للتكبير والصلاة ، وابو لؤلؤة في غمار الناس فلما حاذاه الفاروق هجم عليه وفي يده خنجر له رأسان ، فطعنه به ثلاث طعنات بسرعة عظيمة ، احداهن تحت سرته فسقط امير المؤمنين الى الارض صريعا وكان الناس قد ذهلوا لهول الحادثة وسرعة الجريمة فتراجعوا والتوت صفوفهم ، ثم افاقوا من ذهولهم وهجم بعضهم على المجرم يحاول امساكه فأعمل خنجره يطعن فيهم يمينا وشمالا ، فأصاب ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ، ثم الهم الله احدهم فألقى عليه برنسه فأعماه وشل حركته ، فلما تكاثروا عليه وايقن انه هالك طعن نفسه بخنجره فسقط صريعا بدوره

وصلى عبد الرحمن بن عوف بالناس صلاة خفيفة وعيونهم على الشهيد الوادع الذي صلى معهم بنفسه وهو معتمد على الارض بمرفقه ، فلما انتهت الصلاة احتملوه الى داره ، والقلوب دامية والعيون باكية والافئد مضطربة ، وقد ايقن الجميع ان الاسلام والعروبة يقفان بفترة من الزمن عظيم خطرها بعيد اثرها

وجاء الطبيب يسعى فأمر له بنقيع التمر فسقاه فخرج من الجرح على حاله ، ثم سقاه اللبن فخرج على حاله فأيقن انه صائر لمآبه فقال له اوصى يا امير المؤمنين

وزار كعب الاحبار عمر الجريح بعد وقوع الحادثة فنظر اليه عمر وقال

وواعدني كعب ثلاثا اعدها ... ولا شك ان القول ما قاله كعب

وما بي حذار الموت اني لميت ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وارسل الفاروق يستأذن عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ان يدفن في بيتها الى جانب صاحبيه رسول الله وابي بكر فأذنت له ، وكانت تريد هذا المكان لنفسها ، ثم دعا ابنه عبد الله فقال له يا بني « اني قد ارسلت الى عائشة استأذنها ان ادفن مع اخويّ فأذنت لى وانا اخشى ان يكون ذلك لمكان السلطان وهيبة الامارة فأذا متُّ فاغسلني وكفني ثم احملني حتى تقف بي على باب عائشة فتقول . هذا عمر يستأذن ان يدفن مع اخويه . ولا تقل امير المؤمنين فأني يومئذ لست بامير المؤمنين . فان اذنت فادفني معهما والا فادفني بالبقيع » ولما حمل الى باب عائشة اذنت بدفنه في البقعة الطيبة الى جنب الرسول وابي بكر

وكانت مدة خلافته عشر سنوات وخمسة اشهر وواحد وعشرون يوما

هذه صورة موجزة لبعض مؤامرات الذميين الذين جاؤا المدينة مستأمنين او دخلوا في الاسلام منافقين . فهل لأحد ان يقول بعد هذا كيف اجلى عمر بن الخطاب اهل نجران . فأهل نجران اجلوا من بلد اسلامي الى بلد اسلامي اخر ليؤمن غدرهم وقد وسع عليهم فيه باكثر مما تركوا اقتضت بذلك مصلحة اهل البلاد فهل هضمت حقوقهم في هذا الاجلاء . ام هل حصل عليهم اعتداء من احد من المسلمين ، ولعمري لقد حفظت حقوقهم ورعا المسلمون ذمتهم فكانوا في دعة وامان

قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مظلوماً بيد مجرم اثيم ، فخسر فيه العالم الاسلامي خسارة لم يعوضوا ولن يعوضوا بمثلها وخسرت رعاياه الآخرون حاكماً عادلا فذاً ، لم تلد النساء بعده مثله

كان عمر قد اجرى الله الحق على لسانه وقلبه فلا يفقه ان يقول الا حقاً وهو الذي اقام الحد على ولده حتى قتل ، ولن تجد مثل هذا ابداً ، ولو انه اليوم موجود وعرضت عليه مشاكل العالم لسارت في طريق الحل بحسن رأيه على ايسر واحسن وجه ، وقد مرّ معك حله لقضية الكنيسة المقدسة عندما كان في المقدس ، ولو ان حاكماً ظالماً حول موظفيه عن وظائفهم والغي حكم عمر — ونحن اليوم بعد ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن من هذا الحكم — لرأيت الدماء تسفك بغزارة وتنشب

وارسل الفاروق يستأذن عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ان يدفن في بيتها الى جانب صاحبيه رسول الله وابي بكر فأذنت له ، وكانت تريد هذا المكان لنفسها ، ثم دعا ابنه عبد الله فقال له يا بني « اني قد ارسلت الى عائشة استأذنها ان ادفن مع اخويّ فأذنت لى وانا اخشى ان يكون ذلك لمكان السلطان وهيبة الامارة فأذا متُّ فاغسلني وكفني ثم احملني حتى تقف بي على باب عائشة فتقول . هذا عمر يستأذن ان يدفن مع اخويه . ولا تقل امير المؤمنين فأني يومئذ لست بامير المؤمنين . فان اذنت فادفني معهما والا فادفني بالبقيع » ولما حمل الى باب عائشة اذنت بدفنه في البقعة الطيبة الى جنب الرسول وابي بكر

وكانت مدة خلافته عشر سنوات وخمسة اشهر وواحد وعشرون يوما

هذه صورة موجزة لبعض مؤامرات الذميين الذين جاؤا المدينة مستأمنين او دخلوا في الاسلام منافقين . فهل لأحد ان يقول بعد هذا كيف اجلى عمر بن الخطاب اهل نجران . فأهل نجران اجلوا من بلد اسلامي الى بلد اسلامي اخر ليؤمن غدرهم وقد وسع عليهم فيه باكثر مما تركوا اقتضت بذلك مصلحة اهل البلاد فهل هضمت حقوقهم في هذا الاجلاء . ام هل حصل عليهم اعتداء من احد من المسلمين ، ولعمري لقد حفظت حقوقهم ورعا المسلمون ذمتهم فكانوا في دعة وامان

قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مظلوماً بيد مجرم اثيم ، فخسر فيه العالم الاسلامي خسارة لم يعوضوا ولن يعوضوا بمثلها وخسرت رعاياه الآخرون حاكماً عادلا فذاً ، لم تلد النساء بعده مثله

كان عمر قد اجرى الله الحق على لسانه وقلبه فلا يفقه ان يقول الا حقاً وهو الذي اقام الحد على ولده حتى قتل ، ولن تجد مثل هذا ابداً ، ولو انه اليوم موجود وعرضت عليه مشاكل العالم لسارت في طريق الحل بحسن رأيه على ايسر واحسن وجه ، وقد مرّ معك حله لقضية الكنيسة المقدسة عندما كان في المقدس ، ولو ان حاكماً ظالماً حول موظفيه عن وظائفهم والغي حكم عمر — ونحن اليوم بعد ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن من هذا الحكم — لرأيت الدماء تسفك بغزارة وتنشب

سليم الاول العثماني اراد ان يبادل بين السكان الذميين في بلاده وبين المسلمين سكان روسية القيصرية فقامت ابناء الملة كلها عليه ووقف في وجهه زنبيلي علي افندي شيخ الاسلام يقول بلا محاباة « ليس لك على النصارى واليهود الا الجزية وليس لك ان تزعجهم عن اوطانهم » فرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف

بقي في بلاد الاسلام حتى في ابعد القرى واصغر الدساكر نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم متوفر لديه ما للمسلمين من راحة واطمئنان ، ولقد كان في اسبانيا ملايين وملايين من المسلمين ، وكان في جنوبي فرنسة وفي شمال ايطالية وجنوبيها مئات الوف منهم لبثوا في هاتيك الاوطان اعصراً مديدة ، فما زالت هذه الشعوب تستأصل المسلمين تقتيلاً وتهجيراً حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالاسلام ومحوا آثارهم حتى القبور ، فليقابل المنصفون بين عمل الاسلام وغيرهم

(ليس لعمر ان يضع نظريات تشريعية)

ولقد زعم الاساتذة اصحاب تاريخ العرب ان عمر بن الخطاب وضع نظريات تشريعية في الاسلام فلقد كان يجب عليهم ، وهم يؤرخون للأسلام ، ان يعلموا ان الاسلام مضبوط القواعد ، ثابت الاسس محرر الاصول والفروع لا يتسرب اليه النقص ولا يأتيه الباطل ، ولا يجسر المسلم مهما علا شأنه ان يضع فيه نظريات تشريعية من عند نفسه ، ثم يقول للمسلمين هذه الشريعة فخذوها عني

انما التشريع في هذا الدين خاص بنبيه العظيم دون غيره ، يتلقاه بالوحي عن ربه واذا صدر حكم عن عمر بن الخطاب ، فأنما هو استنباط واجتهاد ، يأخذه من القرآن الكريم او فعل النبي او قوله ، او يقبل عملاً اجمعت عليه الأمة ، او يقيس حكما على حكم آخر اذا توفرت المماثلة ولم يكن هناك نص لما يعرض من القضايا

(اختتام الرسل بالنبوة المحمدية)

ولنختم رسالتنا هذه بقضية طالما حاكمتها الى نفسي فلم اجد امرها الا واحداً لا مصرف لي عنه ، ولم افقه لها الا تفسيراً واحداً لا مندوحة منه ، ان النص القرآني الوارد في سورة الاحزاب يقول « ان محمداً هو رسول الله وخاتم النبيين » قال تعالى (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) آية ٣٩

لقد جعل الله محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الآية خاتم النبيين وآخر المرسلين ، وكان الله بكل شيء عليما ، فيما يأتي بمستقبل الزمان ، فلا يكون نبي بعده كما قال هو نفسه « لا نبي بعدي » وهذه سنة ١٣٧٣ الهجرية . وقد ابتدأت النبوة المحمدية قبل التاريخ الهجري بثلاث عشرة سنة فيكون قد مضى عليها للآن اربعة عشر قرنا. الا اربعة عشر عاماً . ولم يأت مع طول هذا الزمان نبي تكشفت نبوته عن صدق في دعواه او سلامة في طويته . مما يثبت معه صحة الدعوى عند العقلاء او يعتدّ بها احد من المفكرين . فكيف تناول النص القرآني حين انزل ، هذه القرون الكثيرة للمستقبل البعيد وانبأ عنها بخبر صريح . ثم كشف لك الزمان عنها حديثاً صحيحاً لا مراء فيه . ولعمري سيبقى هذا الحكم ابد الدهر والى قيام الساعة

والمتنبؤن الدجالون منذ زمنه عليه الصلاة والسلام الى هذا العصر . لم يأتوا بشيء يرتضيه احد من العقلاء . فماتت دعوتهم كما تموت كل دعوى كاذبة . وابان الزمان عن فضائحهم . في حين اثبت صحة مدلول الآية . وانت تعلم انه لم تجر عادة الله بانقطاع النبوات من الارض مثل هذه المدة الطويلة . فليت شعري كيف يأتي حكمك بما عرضت لك من الحق الذي ينتظر صراحتك في مفهوم الآية

ان هذا من الاخبار بالمغيبات التي اعطى فيها القرآن العظيم حكما قاطعاً على المستقبل البعيد . وحقاً لقد كان القرآن عظيما

والخلاصة ان تاريخ العرب المطول لمؤلفيه الاستاذ حتى ورفيقيه هو مشحون بالاغلاط التاريخية والدينية التي كانت موضع بحثهم . وهي الآن امامي بكثرة فاقتضى الاشارة الى بعضها .

لصاحب هـذا النقد « كتاب تاريخ طرابلس – لبنان »
مصور يـأتي بمجلدين برسم الطبع

مطبعة دار الفنون – طرابلس لبنـان – شارع محمد كرامه – تلفون : ١٤ – ٩٦

MOHAMMAD KAMEL BABA

CRITICISES

THE

HISTORY

OF

THE ARABS

BY

PHILIP K. HITTI

PROFESSOR OF SEMITIC LITERATURE IN

PRINCETON UNIVERSITY

DAR AL - FOUNOUN Printing Press Tripoli Lebanon

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072545831
AP